قصة يوسف ويعقوب عليهما الصلاة والسلام

هذه القصة من أعجب القصص، وذكرها اللَّه جميعًا، وأفردها بسورة مطولة مفصلة تفصيلا واضحًا، قراءتها تغني عن التفسير، فإن اللَّه ساق فيها حالة يوسف من ابتداء أمره إلى آخره، وما بين ذلك من التنقلات واختلاف الأحوال، وقال فيها ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] فلنذكر ما يستنبط من هذه القصة العظيمة من الفوائد، فنقول مستعينين باللَّه:

ذكر ما فيها من الفوائد:

منها: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، من محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة ومن ذل إلى عز، ومن أمن إلى خوف وبالعكس ومن ملك إلى رق وبالعكس ومن فرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس، ومن سرور إلى حزن وبالعكس ومن رخاء إلى جدب وبالعكس، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس، ومن وصول إلى عواقب حميدة، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الألباب.

ومنها: ما فيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة، وأن علم التعبير علم مهم يعطيه اللَّه من يشاء من عباده، وأن أغلب ما تبنى عليه المناسبات وضرب الأمثال والمشابهة في الصفات.

فوجه مناسبة رؤيا يوسف أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له، أن هذه زينة للسماء، وفيها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بالأنوار السماوية، ولأن أباه وأمه أصل، وأخوته فرع عنهما، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرما من الفرع، فلذلك كانت الشمس أمه أو أباه، والقمر الآخر منهما، والكواكب أخوته، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له، والمسجود له معظم محترم، فدل ذلك على أن يوسف يصير معظمًا محترمًا لأبويه وأخوته، ولا يتم هذا إلا بمقدمات تقتضي الوصول إلى هذا من علوم وأعمال واجتباء من اللَّه؛ فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦].

ومنها: المناسبة في رؤيا الفتيين، حيث عبر رؤيا من رأى أنه يعصر خمرًا، أن الذي يعمل هذا العمل يكون في العادة خادمًا لغيره، وأيضًا العصر مقصود لغيره والخادم تابع لغيره ويئول أيضًا إلى السقي الذي هو خدمته، فلذلك أوله بما يئول إليه، وأما تعبيره لرؤيا من رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، بأنه يقتل ويصلب مدة حتى تأكل الطير من مخ رأسه الذي هو يحمل.

وعبر رؤيا الملك بالبقرات والسنبلات بأنها السنين المخصبة والمجدبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أمور الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، فهذه نسبته إذ رأى هو الرؤيا، وكذلك السنون بخصبها وجدبها تنتظم أمور المعاش أو تختل، والبقر هي آلة حرث الأرض واستخراج مغلها، والمغل هو الزرع، فرأى السبب والمسبب،

فرؤيته السبع السمان من البقر ثم السبع العجاف، والسبع السنبلات الخضر، ثم السبع اليابسات، أي لابد أن تتقدم السبع السنين المخصبات، ثم تتلوها المجدبات، وتأكل ما حصل فيها من غلال، ولا تبقي إلا شيئًا يحصنونه عنها وإلا فهي بصدد أكلها كلها.

فإن قيل من أين أخذ قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩] فإن بعض المفسرين قال هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحي أوحي إليه.

فالجواب: ليس الأمر كذلك وإنما أخذها من رؤيا الملك، فإن السنين المجدبة سبع فقط، فدل على أنه سيأتي بعدها عام عظيم الخصب كثير البركات يزيل الجدب العظيم الحاصل من السنين المجدبة الذي لا يزيلها عام خصب عادي، بل لابد فيه من خصب خلاف العادة، وهذا واضح وهو من مفهوم العدد.

ومنها: ما فيها من الأدلة والبراهين على نبوة محمد ﷺ حيث قصّ عليه هذه القصة المفصلة المبسوطة الموافقة للواقع التي أتت بالمقصود كله، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدًا كما هو معلوم لقومه. وهو بنفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]

ومنها: أنه ينبغي للعبد البعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرته لقول يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ﴾ [يوسف: ٥].

ومنها: ذكر الإنسان بما يكره على وجه الصدق والنصيحة له أو لغيره لقوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة اللّه على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه؛ فإنه لابد أن يصلهم ويشملهم منها جانب؛ لقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦] أي بما يحصل لك، ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال المكروه وحصول المحبوب ما ذكر اللّه في آخر القصة.

ومنها: أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لابد أن يتقدمها أسباب ووسائل إليها؛ لأن اللّه حكيم وله سنن لا تتغير، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالأسباب النافعة، خصوصا العلوم النافعة وما يتفرع عنها من الأخلاق والأعمال، فلهذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك الحالة التي يخضع له فيها أبوه وأمه وإخوته مقام عظيم ومرتبة عالية، وأنه لابد أن ييسر اللّه ليوسف من الوسائل ما يوصله إليها، ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦].

ومنها: أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار في معاملة السلطان لرعيته، ومعاملة الوالدين للأولاد، والقيام بحقوق الزوجات وغير ذلك في المحبة والإيثار ونحوها، وأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب، وفي الإخلال بذلك تفسد الأحوال ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر، لهذا لما

قدم يعقوب ﷺ يوسف في المحبة، وجعل وجهه له جرى منهم على أبيهم وأخيهم من المكروه ما جرى.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوبًا كثيرة وتسلسل الشر المؤسس على الذنب الأول، وانظر إلى جرم إخوة يوسف، فإنهم لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه الذي هو من أعظم الجرائم احتالوا على ذلك بعدة حيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي صفة حالهم حين أتوا عشاء يبكون ولابد أن الكلام في هذه القضية تسلسل وتشعب، بل ربما أنه اتصل إلى الاجتماع بيوسف، وكلما بحث في هذا الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة على يعقوب، بل وعلى يوسف، فليحذر العبد من الذنوب، خصوصًا الذنوب المتسلسلة، وضد ذلك بعض الطاعات تكون طاعة واحدة، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتى تستتبع طاعات من الفاعل وغيره، وهذا من أعظم آثار بركة اللَّه للعبد في علمه وعمله.

ومنها: أن العبرة للعبد في حال كمال النهاية لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب ﷺ جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والاعتراف التام، والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد بحق فاللَّه أولى بذلك وهو خير الراحمين الغافرين، ولهذا في أصح الأقوال أن اللَّه جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم وكأنه ما كان ولقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤] وهم

أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التي فيها النور والهداية، وهي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء عباد.

ومنها: ما منَّ اللَّه به على يوسف من العلم والحلم والأخلاق الكاملة والدعوة إلى اللَّه وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به، وتمم ذلك بأن أخبرهم أنه لا تثريب عليهم بعد هذا العفو، ثم بره العظيم بأبيه وأمه وإحسانه على إخوته، وإحسانه على عموم الخلق، كما هو بين في سيرته وقصته.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما فإن إخوة يوسف لما قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف:٩]. وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف:١٠] كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الأكبر، وهو من جملة الأسباب التي قدر اللَّه ليوسف في وصوله إلى الغاية التي يريد.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يعلم المعاملون أنه على غير وجه الشرع فلا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف باعه إخوته بيعًا محرمًا عليهم، واشترته السيارة بناء على أنه عبد لإخوة يوسف البائعين، ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلامًا رقيقًا وسماه اللَّه سيدًا، وكان عندهم بمنزلة الرقيق المكرم، وسمى اللَّه شراء السيارة وشراءه في مصر معاملة لما ذكرنا.

ومنها : الحذر من الخلوة بالنساء الأجنبيات ، وخصوصا اللاتي يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها ، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحبها الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل.

ومنها : أن الهم الذي هم به يوسف ثم تركه للَّه ولبرهان الإيمان الذي وضعه اللَّه في قلبه مما يرقيه إلى اللَّه زلفى ؛ لأن الهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة طبع عليها الآدمي ، فإذا حصل الهم بالمعصية ولم يكن عند العبد ما يقاوم ذلك من الإيمان والخوف من اللَّه وقع الذنب ، وإن كان العبد مؤمنًا كامل الإيمان ، فإن الهم الطبيعي إذا قابله ذلك الإيمان الصحيح القوي منعه من ترتب أثره ، ولو كان الداعي قويًّا ، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع ، قال تعالى : ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف : ٢٤] بدليل قوله : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف : ٢٤] لاستخلاص اللَّه إياه وقوة إيمانه وإخلاصه ، خلصه اللَّه من الوقوع في الذنب ، فكان ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ومن أعلى السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر ﷺ منهم رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف اللَّه ، فهمها لما كان لا معارض له استمرت في مراودته ، وهمه عارض عرض ثم زال في الحال ببرهان ربه.

ومنها : أن من دخل الإيمان قلبه ثم استنار بمعرفة ربه ونور الإيمان به ، وكان مخلصا للَّه في كل أحواله فإن اللَّه يدفع عنه ببرهان إيمانه

وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لأن الله علل صرف هذه الأمور عن يوسف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإن من أخلصه الله واجتباه فلابد أن يكون مخلصا، فالمعنيان متلازمان.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا ابتلي بالوقوع في محل فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من ذلك الشر، كما فر يوسف هاربا للباب، وهي تمسك بثوبه وهو مدبر عنها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه في الدعاوى، وذلك أن الشاهد الذي شهد أي حكم على يوسف وعلى المرأة اعتبر القرينة فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] إلى آخر القضية، وصار حكمه هذا موافقا للصواب، ومن القرائن وجود الصواع في رحل الأخ، وقد اعتبر هذا وهذا.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الباهر ظاهرًا وباطنًا، فإن جملة الظاهر أوجب لامرأة العزيز ما أوجب من الحب المفرط والمراودة المستمرة، ولما لامها النساء دعتهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة منه، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع السوء منه، ولكن الإيمان ونوره والإخلاص وقوته لا يشذ عنهما فضيلة ولا تجامعهما رذيلة، وقد بينت امرأة العزيز

للنساء من يوسف الأمرين، فإنها لما أرتهن جماله الظاهر الذي اعترفن أن هذا الجمال لا يوجد في الآدميين قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقالت بعد ذلك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

ومنها: أن يوسف ﷺ اختار السجن على المعصية، فهكذا إذا ابتلي العبد بأحد أمرين، إما أن يلجأ إلى فعل المعصية، وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التي فيها الثواب من هذا الوجه بعدة أمور: ثواب من جهة اختياره الإيمان على السلامة من العقوبة الدنيوية، وثواب من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية، وهو يدخل في الجهاد في سبيل الله، وثواب من جهة المصيبة التي نالته والألم الذي أصابه، فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه، وهذا أيضًا عنوان الإيمان وعلامة السعادة.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى ربه ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] فالعبد الموفق يستعين ربه على دفع المعاصي وأسبابها، كما يستعين به عند فعل الطاعات والخيرات والله كافي المتوكلين.

ومنها: أن العلم والعقل الصحيح يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى ضد ذلك لقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] أي: الجاهلين بالأمور الدينية، والجاهلين بالحقائق النافعة والحقائق الضارة.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لربه في حال رخائه، فعليه عبودية في حال الشدة، فيوسف ﷺ لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا من يتصل به من أهل السجن ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك، ومن كمال رأيه وحكمته أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حين احتاجا إليه في تعبير رؤياهما وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] رأى ذلك فرصة، فدعاهما إلى الله قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أقرب إلى حصول المطلوب، وبين لهما أن الذي أوصله إلى هذه الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده وتركه لملة المشركين، وهذا دعاء لهما بالحال ثم دعاهما بالمقال، وبرهن لهما على حسن التوحيد ووجوبه، وعلى قبح الشرك وتحريمه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالمهم، وأنه إذا سئل المفتي وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف لما سأله الفتيان عن رؤياهما، وكانت حاجتهما إلى التوحيد والإيمان أعظم من كل شيء قدمها.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون نقصًا ولا شكوى إلى المخلوق ممنوعة، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض فيها؛ ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

ومنها: أنه يتعين على المعلم والداعي إلى الله استعمال الإخلاص التام في تعليمه ودعوته، وأن لا يجعل ذلك وسيلة إلى معاوضة في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف قد وصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسي فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلا مستفتيًا عن تلك الرؤيا فلم يعنفه يوسف ولا وبخه، بل ولا قال له لم لم تذكرني عند ربك وأجابه جوابًا تامًّا من جميع الوجوه.

ومنها: أنه ينبغي للمسئول إذا أجاب السؤال أن يدل السائل على الأمر الذي ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه؛ فإن هذا من كمال نصحه وجزالة رأيه وحسن إرشاده، فإن يوسف لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم مع ذلك وأشار عليهم بما يصنعونه في تلك السنين المخصبات من الإكثار من الزراعة وحسن الحفظ والجباية.

ومنها: أنه لا يلام العبد على دفع التهمة عن نفسه بل ذلك مطلوب كما امتنع يوسف من الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم، علم الشرع والأحكام، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وعلم السياسة، فإن يوسف ﷺ إنما حصلت له الرفعة في الدنيا والآخرة بسبب علمه المتنوع، وفيه أن علم التعبير داخل في الفتوى، فلا يحل لأحد أن يجزم بالتعبير قبل أن يعرف ذلك، كما ليس له أن يفتي في الأحكام بغير علم؛ لأن الله سماها فتوى في هذه السورة.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من الصفات الكاملة من العلم وغيره إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب ولم يقصد به الرياء لقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي لها يقوم بما يقدر عليه من إقامة الشرع وإيصال الحقوق إلى أهلها، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلا وأعظم كفاءة من غيره، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة أو كان موجودًا من هو أمثل منه أو مثله، أو لم يرد بها إقامة أمر اللّه بل أراد الترأس والمأكلة المالية.

ومنها: أن اللّه واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان لا ثالث لهما: الإيمان بكل ما أوجب اللّه الإيمان به، والتقوى التي هي امتثال الأوامر الشرعية واجتناب النواهي، وأن خير الآخرة خير من ثواب الدنيا وملكها، وأنه ينبغي للعبد أن يدعو نفسه ويشوقها لثواب اللّه ولا يدعها تحزن إذا رأت لذات الدنيا ورياساتها وهي عاجزة عنها، بل يسليها بالثواب الأخروي ليخف عليها عدم حصو الدنيا، لقول يوسف: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف: ٥٧].

ومنها: أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم لا بأس به، بل ذلك مطلوب؛ لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد به للسنين المجدبات، وقد حصل به الخير الكثير.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها، فنهض بالزراعة حتى كثرت الغلال جدًّا، فصار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها عندما فقدوا ما عندهم؛ لعلمهم بوفورها في مصر، ومن عدله وتدبيره وخوفه أن يتلاعب بها التجار أنه لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله، وظاهر حاله أنه لا يعطي أهل البلد إلا أقل من ذلك بكثير لحضورهم عنده.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف، لقول يوسف: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩].

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم؛ فإن يعقوب قال لأولاده ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤] وقال ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣] فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرطين فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن يقول ما قال من غير لوم عليه.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء اللّه وقدره؛ فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر؛ لقول يعقوب ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧].

ومنها: جواز استعمال الحيل والمكائد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وأما الحيل التي يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم فإنها محرمة غير نافذة.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب بيانه له أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حين ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه موهمًا أنه سارق، وليس في ذلك تصريح بسرقته، وإنما استعمل المعاريض، ومثل هذا قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل من سرق متاعنا.

ومنها: أنه لا يجوز أن يشهد إلا بما علمه وتحققه برؤية أو سماع لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١] وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن اللَّه بها نبيه وصفيه يعقوب ﷺ، إذ قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه أشد الحزن، فتم لهذه الفرقة مدة طويلة ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] ثم ازداد به الأمر حين اتصل فراق الابن الثاني بالأول، وهو في ذلك صابر لأمر اللَّه محتسب الأجر من اللَّه، وقد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا ريب أنه وفى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] فإن الشكوى إلى اللَّه لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين، ولا ريب أن اللَّه رفعه بهذه المحنة درجات عالية ومقامات سامية، لا تنال إلا بمثل هذه الأمور.

ومنها: أن الفرج مع اشتداد الكرب؛ فإنه لما تراكمت الشدائد المتنوعة وضاق العبد ذرعًا بحملها، فرجها فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين، وهذه عوائده الجميلة، خصوصا لأوليائه وأصفيائه؛ ليكون لذلك الوقع الأكبر والمحل الأعظم، وليجعل من المعرفة باللَّه والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة.

ومنها: جواز إخبار العبد بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخط لقول يعقوب: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] وقول إخوة يوسف: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨] وأقرهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره للَّه تعالى، ولهذا قال يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومنها: ما في هذه القصة من الألطاف المتنوعة المسهلة للبلاء منها رؤيا يوسف السابقة؛ فإن فيها روحا ولطفا بيوسف وبيعقوب، وبشارة بالوصول إلى تأويلها، ولطف اللَّه بيوسف إذ أوحى إليه وهو في الجب

لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، وتنقلاته من حال إلى حال، فإن فيها ألطافًا ظاهرة وخفية ولهذا قال في آخر الأمر: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] يلطف به في أحواله الداخلية، ويلطف له في الأمور الخارجية ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلح دائمًا على ربه في تثبيت إيمانه وأن يحسن له الخاتمة وأن يجعل خير أيامه آخرها، وخير أعماله خواتمها فإن الله كريم جواد رحيم.

* * *

قصة أصحاب الكهف

وهم فتية وفقهم اللَّه وألهمهم الإيمان وعرفوا ربهم وأنكروا ما عليه قومهم من عبادة الأوثان وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم، خائفين من سطوة قومهم فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا﴾ [الكهف: ١٤] أي إن دعونا غيره ﴿شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي زورًا وبهتانًا وظلمًا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥] فلما اتفقوا على هذا الأمر، وعرفوا أنهم لا يمكنهم إظهار ذلك لقومهم سألوا اللَّه أن يسهل أمرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

فأووا إلى غار يسره اللَّه غاية التيسير، واسع الفجوة، بابه نحو الشمال لا تدخله الشمس، لا في طلوعها ولا في غروبها فناموا في كهفهم بحفظ اللَّه ورعايته ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، وقد ضرب اللَّه عليهم نطاقًا من الرعب على قربهم من مدينة قومهم، ثم إنه في الغار تولى حفظهم بقوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨] وذلك لئلا تبلي الأرض أجسادهم، ثم أيقظهم بعد هذه المدة الطويلة ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩] وليقفوا في آخر الأمر على الحقيقة ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩] إلى آخر القصة.

ففيها آيات بينات وفوائد متعددة:

منها: أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت عجيبة فليست من أعجب آيات اللَّه، فإن للَّه آيات عجيبة وقصصًا فيها عبرة للمعتبرين.

ومنها: أن من أوى إلى اللَّه آواه اللَّه ولطف به وجعله سببا لهداية الضالين، فإن اللَّه لطف بهم في هذه النومة الطويلة إبقاء على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه القومة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة اللَّه وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد اللَّه حق.

ومنها: الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها؛ لأن اللَّه بعثهم لأجل ذلك، وببحثهم ثم بعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وعد اللَّه حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عندما يعرف.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك، لقولهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ الآية [الكهف: ١٩].

ومنها: جواز أكل الطيبات والتخير من الأطعمة ما يلائم الإنسان ويوافقه، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه، لقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنها: الحث والتحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر.

ومنها: بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتركهم لأوطانهم وعوائدهم في اللّٰه.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين.

ومنها: أن قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢٠] فيه دليل على أن هؤلاء القوم الذين بعثوا في زمانهم، أناس أهل تدين؛ لأنهم عظموهم هذا التعظيم حتى عزموا على اتخاذ مسجد على كهفهم، وهذا وإن كان ممنوعًا - وخصوصًا في شريعتنا - فالمقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل الكهف وقت إيمانهم ودخولهم في الغار أبدلهم اللّٰه به بعد ذلك أمنًا وتعظيمًا من الخلق، وهذه عوائد اللّٰه فيمن تحمل المشاق من أجله أن يجعل له العاقبة الحميدة.

ومنها: أن كثرة البحث وطوله في المسائل التي لا أهمية لها لا ينبغي الانهماك به لقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢].

ومنها: أن سؤال من لا علم له في القضية المسئول فيها أو لا يوثق به منهي عنه لقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

* * *

قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين
ومن أنزل عليه القرآن هدى ورحمة للمؤمنين

اعلم أن سيرة نبينا محمد ﷺ أعظم عون على معرفة تفسير كتاب الله، والقرآن إنما كان ينزل تبعًا لمناسبات سيرته وما يقوله للخلق وجواب ما يقال له وما يحصل به تحقيق الحق الذي جاء به وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها، وهذا من حكمة إنزاله مفرقًا، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣] وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠] فلنشر من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون عونا في هذا المقام.

فأول مقاماته في إنزال القرآن عليه أنه كان قبل البعثة قد بغضت إليه عبادة الأوثان، وبغض إليه كل قول قبيح وفعل قبيح، وفطر ﷺ فطرة مستعدة متهيئة لقبول الحق علمًا وعملا والله تعالى هو الذي طهر قلبه وزكاه وكمله، فكان من رغبته العظيمة فيما يقرب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد ويأخذ معه طعامًا يطعم منه المساكين ويتعبد ويتحنث فيه، فقلبه في غاية التعلق بربه، ويفعل من العبادات ما وصل إليه علمه في ذلك الوقت الجاهلي الخالي من العلم، ومع ذلك فهو في غاية الإحسان إلى الخلق، فلما تم عمره أربعين سنة وتمت قوته العقلية وصلح لتلقي أعظم رسالة أرسل الله بها أحدًا من

خلقه، تبدى له جبريل ﷺ فرأى منظرًا هاله وأزعجه، إذ لم يتقدم له شيء من ذلك، وإنما قدم الله له الرؤيا، التي كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فأول ما أنزل الله عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فجاءه بها جبريل وقال له: اقرأ، فأخبره أنه ليس بقارئ- أي لا يعرف أن يقرأ - كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] وتفسيرها الآية الأخرى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] فغطه جبريل مرتين أو ثلاثًا ليهيئه لتلقي القرآن العظيم، ويتجرد قلبه وهمته وظاهره وباطنه لذلك، فنزلت هذه السورة التي فيها نبوته، وأمره بالقراءة باسم ربه، وفيها أصناف نعمه على الإنسان بتعليمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي، فجاء بها إلى خديجة ترعد فرائصه من الفرق[1] وأخبرها بما رآه وما جرى عليه، فقالت خديجة رضي الله عنها: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق، أي ومن كانت هذه صفته، فإنها تستدعي نعما من الله أكبر منها وأعظم، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه، ومن تهوين القلق الذي أصابه.

وبهذه السورة ابتدأت نبوته ثم فتر عنه الوحي مدة ليشتاق إليه وليكون أعظم لموقعه عنده وكان قد رأى الملك على صورته فانزعج، فجاء إلى خديجة أيضًا ترعد فرائصه فقال «دثروني دثروني» فأنزل الله

---

(١) الفرق: الخوف.

عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ الآيات [المدثر: ١-٥] كان في هذا الأمر له بدعوة الخلق وإنذارهم، فشمر ﷺ عن عزمه وصمم على الدعوة إلى ربه مع علمه أنه سيقاوم بهذا الأمر البعيد والقريب، وسيلقى كل معارضة من قومه ومن غيرهم وشدة، ولكن اللّه أيده وقوى عزمه وأيده بروح منه وبالدين الذي جاء به، وجاءته سورة الضحى في فترة الوحي لما قال المكذبون: إن رب محمد قلاه. قال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ إلى آخرها [الضحى: ١، ٢، ٣].

وهذا اعتناء عظيم من اللّه برسوله، ونفي لكل نقص وبشارة بأن كل حالة له أحسن مما قبلها وخير منها، وأن اللّه سيعطيه من النصر والأتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه.

فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص والنهي عن ضده، دعا الناس لهذا، وقرره اللّه في كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبين وجوب التوحيد وحسنه، وتعينه طريقًا إلى اللّه وإلى دار كرامته، وقرر إبطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن، وهي أغلب السور المكية، فاستجاب له في هذا الواحد بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه، وقاومه قومه وغيرهم وبغوا له الغوائل، وحرصوا على إطفاء دعوته بجدهم وقولهم وفعلهم، وهو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين، ولكنهم يكابرون ويجحدون آيات اللّه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] ولهذا لما كان

استماعهم للقرآن على وجه الكفر والجحد والتكذيب وتوطين نفوسهم على معاداته أخبر اللَّه تعالى أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وأنهم لا يهتدون بسبب ما أسسوا من هذا الأصل الخبيث المانع لصاحبه من كل خير وهدى، وهذا مما يعلم به حكمة البارئ في إضلال الضالين، وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورغبوا فيه، ولاهم اللَّه ما تولوا لأنفسهم وتركهم في طغيانهم يعمهون، وأنهم لما ردوا نعمة اللَّه عليهم حين جاءتهم، قلب اللَّه أفئدتهم وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم وأفئدتهم، وهذا الوصف الذي أشرنا إليه قد ذكره اللَّه في كتابه عنهم، وهو يعينك على فهم آيات كثيرة يخبر اللَّه فيها بضلالهم وانسداد طرق الهداية عليهم، وعدم قبول محالهم وقلوبهم للهدى، والذنب ذنبهم وهم السبب في ذلك.

قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠] وبضده تعرف الحكمة في هدايته للمؤمنين، وأنهم لما كانوا منصفين ليس غرضهم إلا الحق، ولا لهم قصد إلا طلب رضا ربهم، هداهم اللَّه بالقرآن، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهم وهدايتهم المتنوعة. قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وهذا الوصف الجليل للمؤمنين هو الأساس لهدايتهم وزيادة إيمانهم وانقيادهم وبه ينفتح لك الباب في فهم الآيات في أوصاف المؤمنين وسرعة انقيادهم للحق أصوله وفروعه.

ومن مقامات النبي ﷺ مع المكذبين له أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويدعوهم أفرادًا ومجتمعين، ويذكرهم بالقرآن يتلوه في الصلاة وخارجها، وكانوا إذا سمعوه صموا آذانهم، وقد يسبونه ويسبون من أنزله، فأنزل اللَّه على رسوله آيات كثيرة في هذا المعنى يبين حالهم مع سماع القرآن وشدة نفورهم: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١]، وأن شياطينهم ورؤساءهم في الشر فكروا وقدروا ونظروا فيما يقولون عن القرآن ويصفونه به لينفروا عنه الناس، حتى قر قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذي سماه اللَّه وحيدًا: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥]، ولكن أبى اللَّه إلا أن يعلو هذا الكلام كل كلام ويزهق هذا الحق كل باطل.

وكانوا من إفكهم يقولون في القرآن الأقوال المتناقضة، يقولون: إنه سحر، إنه كهانة، إنه شعر، إنه كذب، إنه أساطير؛ فجعلوا القرآن عضين، كل هذا أثر البغض الذي أحرق قلوبهم، حتى قالوا فيه مقالة المجانين، وكلما قالوا قولا من هذه الأقوال أنزل اللَّه آيات يبطل بها ما قالوا، ويبين زورهم وافتراءهم وتناقضهم.

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ وأن القرآن من عند اللَّه مقابلة المكذبين له فإن من نظر إليها علم أنها سلاح عليهم، وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق ساعون في إبطاله وأنهم على الباطل الذي ليس له حظ من العقل، كما ليس له حظ من الدين، وكانوا أيضًا يقولون في النبي ﷺ الأقوال التي ليس فيها دلالة على ما كانوا يعتقدون،

وليس فيها نقص بالنبي ﷺ يقولون: لو أن محمدًا صادق لأنزل اللَّه ملائكة يشهدون له بذلك، ولأغناه اللَّه عن المشي في الأسواق وطلب الرزق كما يطلبه غيره، ولجعل له كذا وكذا مما توحي إليه عقولهم الفاسدة، ويذكرها اللَّه في القرآن في مواضع متعددة، تارة يصورها للعباد فقط؛ لأن من تصورها عرف بطلانها وأنها ليست من الشبه القادحة، فضلا عن الحجج المعتبرة، وتارة يصورها ويذكر ما يبطلها من الأمور الواضحة، وهذا كثير في القرآن.

ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ أنهم يسعون أشد السعي أن يكف عن عيب آلهتهم والطعن في دينهم ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه؛ لعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم ووصفها بالصفات التي هي عليها من النقص، وأنها ليس فيها شيء من الصفات يوجب أن تستحق شيئًا من العبادة، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك ويعترفون به، فلا أحب إليهم من التزوير وإبقاء الأمور على علاتها من غير بحث عن الحقائق؛ لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانت ظهر للخلق بطلان ما هم عليه وهذا الذي منه يفرون.

وهذا المقام أيضًا ذكره اللَّه في آيات متعددة، مثل قوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] ونحوها من الآيات. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] فهذا إذا ترتب على السب المذكور سبهم للَّه، فإنه يترك لما يترتب عليه من الشر.

ومن مقاماتهم المتنوعة مع النبي ﷺ أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم ويقولون إن كنت صادقًا فأتنا بعذاب اللَّه، أو بما

تعدنا، أو أزل عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهارًا وعيونًا. وحتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكره اللّه عنهم فيجيبهم اللّه عن هذه الأقوال بأن رسوله ﷺ قد أيده اللّه بالآيات واللّه أعلم بما ينزل من آياته، وأعلم بما هو أنفع لهم، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه وقامت الأدلة والبراهين على ذلك.

فقول الجاهل الأحمق لو كان كذا وكذا جهل منه وكبر ومشاغبة محضة، وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه من الإتيان بها إلا الإبقاء عليهم وأنها لو جاءت لا يؤمنون، فعند ذلك يعاجلهم اللّه بالعقاب. وتارة يبين لهم أن الرسول إنما هو نذير مبين، ليس له من الأمر شيء، ولا من الآيات شيء وأن هذا من عند اللّه، فطلبهم من الرسول محض الظلم والعدوان، وهذه المعاني في القرآن كثيرة بأساليب متعددة.

وأحيانًا يقدحون في الرسول قدحا يعترضون فيه على اللّه، وأنه لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ومحمد ليس كذلك، وإنك يا محمد لست بأولى بفضل اللّه منا، فلأي شيء تفضل علينا بالوحي؟! ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد، فيجيبهم اللّه بذكر فضله، وأن فضله يؤتيه من يشاء، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته والمحل اللائق بها، ويشرح لهم من صفات رسوله التي يشاهدونها رأي عين ما يعلمون هم وغيرهم أنه أعظم رجل في العالم، وأنه ما وجد ولن يوجد أحد يقاربه في الكمال، مؤيدًا ذلك بالأمور المحسوسة والبراهين المسلمة، وقد أبدى اللّه هذه المعاني وأعادها معهم في مواضع كثيرة.

ومن مقاماته ﷺ مع المؤمنين الرأفة العظيمة والرحمة لهم والمحبة التامة والقيام معهم في كل أمورهم، وأنه لهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم، وأحنى عليهم من كل أحد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلم يزل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله، ويقرر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بعث إلى أن استكمل بعد بعثته، نحو عشر سنين وهو يدعو إلى اللّه على بصيرة.

ثم أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته، وعرج به إلى فوق السموات السبع، وفرض اللّه عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها، وجاءه جبريل على أثرها فعلمه أوقاتها وكيفياتها، وصلى به يومين، اليوم الأول صلى الصلوات الخمس في أول وقتها. واليوم الثاني في آخر الوقت، وقال: الصلاة ما بين هذين الوقتين، ففرضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، ولم يفرض الأذان في ذلك الوقت ولا بقية أركان الإسلام، وانتشر الإسلام في المدينة وما حولها.

ومن جملة الأسباب أن الأوس والخزرج كان اليهود في المدينة جيرانًا لهم، وقد أخبروهم أنهم ينتظرون نبيًّا قد أظل زمانه، وذكروا من أوصافه ما دلهم عليه، فبادر الأوس والخزرج لما اجتمعوا بالنبي ﷺ في مكة وتيقنوا أنه رسول اللَّه، وأما اليهود فاستولى عليهم الشقاء والحسد: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]. وكان المسلمون في مكة في أذى شديد من قريش فأذن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولا إلى الحبشة، ثم لما أسلم كثير من أهل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة.

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع ملؤهم ورؤساؤهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ فاتفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش من كل قبيلة رجلا شجاعًا فيجتمعون ويضربونه بسيوفهم ضربة واحدة.

قالوا لأجل أن يتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فجاء الوحي إلى النبي ﷺ وعزم على الهجرة، وأخبر أبا بكر بذلك وطلب منه الصحبة فأجابه إلى ذلك وخرج في تلك الليلة التي اجتمعوا على الإيقاع به، وأمر عليًّا أن ينام على فراشه وخرج هو وأبوبكر إلى الغار، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر، فخرج إليهم علي فقالوا: أين صاحبك؟ قال لا أدري.

ثم ذهبوا يطلبونه في كل وجهة وجعلوا الجعالات الكثيرة لمن يأتي به، وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول اللَّه ﷺ

فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا. فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما؟ وأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠] فهاجر إلى المدينة واستقر بها وأذن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعًا لحكمة مشاهدة، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩] وجعل يرسل السرايا.

ولما كانت السنة الثانية فرض اللَّه على العباد الزكاة والصيام، فآيات الصيام والزكاة إنما نزلت في هذا العام وقت فرضها، وأما قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] فإن المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وترك الشرك.

وفي السنة الثانية أيضًا كانت وقعة بدر. وسببها أن عيرًا لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام، خرج النبي ﷺ بمن خف من أصحابه لطلبها، فخرجت قريش لحمايتها وتوافوا في بدر على غير ميعاد، فالعير نجت والنفير التقوا مع الرسول وأصحابه، وكانوا ألفًا كاملي العدد والخيل، والمسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر على سبعين بعيرًا يعتقبونها، فهزم اللَّه المشركين هزيمة عظيمة، قتلت سرواتهم وصناديدهم، وأسر من أسر منهم، وأصاب المشركين مصيبة ما أصيبوا بمثلها، وهذه الغزوة أنزل اللَّه فيها وفي تفاصيلها سورة الأنفال. وبعدما رجع إلى المدينة منها

مظفرًا منصورًا ذل من بقي ممن لم يسلم من الأوس والخزرج، ودخل بعضهم في الإسلام نفاقًا، ولذلك جميع الآيات التي نزلت في المنافقين إنما كانت بعد غزوة بدر.

ثم في السنة الثالثة كانت غزوة أحد. غزا المشركون وجيشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة، وخرج إليهم رسول اللَّه ﷺ بأصحابه وعبأهم ورتبهم والتقوا في أحد عند الجبل المعروف شمالي المدينة، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشركين، ثم لما ترك الرماة مركزهم الذي رتبهم فيه رسول اللَّه ﷺ وقال لهم: لا تبرحوا عنه ظهرنا أو غلبنا، وجاءت الخيل مع تلك الثغرة وكان ما كان؛ حصل على المسلمين في أحد مقتلة أكرمهم اللَّه بالشهادة في سبيله، وذكر اللَّه تفصيل هذه الغزاة في سورة آل عمران، وبسط متعلقاتها، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يعين على فهم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات.

ثم في السنة الرابعة تواعد المسلمون والمشركون فيها- في بدر- فجاء المسلمون لذلك الموعد وتخلف المشركون معتذرين أن السنة مجدبة، فكتبها اللَّه غزوة للمسلمين: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ثم في سنة خمس كانت غزوة الخندق. اتفق أهل الحجاز وأهل نجد وظاهرهم بنو قريظة من اليهود على غزو النبي ﷺ وجمعوا ما يقدرون عليه من الجنود، فاجتمع نحو عشرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة، ولما سمع بهم النبي ﷺ خندق على المدينة، وخرج المسلمون نحو الخندق،

وجاء المشركون كما وصفهم اللَّه بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] ومكثوا محاصرين المدينة عدة أيام، وحال الخندق بينهم وبين اصطدام الجيوش، وحصل مناوشات يسيرة بين أفراد من الخيل. وسبب اللَّه عدة أسباب لانخذال المشركين، ثم انشمروا إلى ديارهم، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازمين على حصوله تفرغ النبي ﷺ لبني قريظة الذين ظاهروا المشركين بقولهم وتشجيعهم على قصد المدينة ومظاهرتهم الفعلية ونقضهم ما كان بينهم وبين النبي ﷺ فحاصرهم فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم.

وفي هذه الغزوة أنزل اللَّه صدر سورة الأحزاب من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] إلى قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ثم في سنة ست من الهجرة اعتمر ﷺ وأصحابه عمرة الحديبية، وكان البيت لا يصد عنه أحد، فعزم المشركون على صد النبي ﷺ عنه، ولما بلغ الحديبية ورأى المشركين قد أخذتهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم في صلح لحقن الدماء في بيت اللَّه الحرام، ولما في ذلك من المصالح، وصار الصلح على أن يرجع النبي ﷺ عامه هذا ولا يدخل البيت، ويكون القضاء من العام المقبل، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشر سنين، فكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين توهموا أن فيه غضاضة على المسلمين ولم يطلعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة، فرجع

ﷺ عامه ذلك وقضى هذه العمرة في عام سبع من الهجرة، فأنزل اللَّه في هذه القضية سورة الفتح بأكملها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] فكان هذا الفتح لما فيه من الصلح الذي تمكن فيه المسلمون من الدعوة إلى الإسلام ودخول الناس في دين اللَّه حين شاهدوا ما فيه من الخير والصلاح والنور. وقد تقدم أن قصة بني قريظة دخلت في ضمن قصة الخندق.

أما قبيلة بني النضير من اليهود فإنها قبل ذلك حين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وكانوا على جانب المدينة غزاهم ﷺ واحتموا بحصونهم ووعدهم المنافقون حلفاؤهم بنصرتهم، فألقى اللَّه الرعب في قلوبهم، وأنزلهم رسول اللَّه ﷺ على أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم، ويدعوا الأرض والعقار وما لم تحمله الإبل للمسلمين، فأنزل اللَّه في هذه القضية أول سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] إلى آخر القصة.

وفي سنة ثمان من الهجرة، وقد نقضت قريش العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ غزا مكة في جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف، فدخلها فاتحًا لها، ثم تممها بغزو حنين على هوازن وثقيف، فتم بذلك نصر اللَّه لرسوله وللمسلمين، وأنزل اللَّه في ذلك أول سورة التوبة.

وفي سنة تسع من الهجرة غزا تبوك وأوعب المسلمين معه، ولم يتخلف إلا أهل الأعذار وأناس من المنافقين، وثلاثة من صلحاء المؤمنين: كعب ابن مالك وصاحباه. وكان الوقت شديدًا والحر شديدًا والعدو كثيرًا والعسرة مشتدة، فوصل إلى تبوك ومكث عشرين يومًا ولم يحصل قتال

فرجع إلى المدينة، فأنزل اللَّه في هذه الغزوة آيات كثيرة من سورة التوبة، يذكر تعالى تفاصيلها وشدتها، ويثني على المؤمنين، ويذم المنافقين وتخلفهم، ويذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، ويدخل معهم الثلاثة الذين خلفوا بعد توبتهم وإنابتهم.

وفي مطاوي هذه الغزوات يذكر اللَّه آيات الجهاد وفرضه وفضله وثواب أهله، وما للناكلين عنه من الذل العاجل والعقاب الآجل، كما أنه في أثناء هذه المدة ينزل اللَّه الأحكام الشرعية شيئًا فشيئًا بحسب ما تقتضيه حكمته.

وفي سنة تسع من الهجرة أو سنة عشر فرض اللَّه الحج على المسلمين، وكان أبو بكر حج بالناس سنة تسع ونبذ إلى المشركين عهودهم، وأتم عهود الذين لم ينقضوا، ثم حج النبي ﷺ بالمسلمين سنة عشر واستوعب المسلمين معه، وأعلمهم بمناسك الحج والعمرة بقوله وفعله، وأنزل اللَّه الآيات التي في الحج وأحكامه، وأنزل اللَّه يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بينه لهم؛ فإن القرآن تبيان لكل شيء، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلى أن تقوم الساعة، ففي القرآن بيانه والإرشاد إليه وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئًا مما جاء به القرآن؛ فإنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿أَفَلَا

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فهذه الآية جمعت بين نوعي العلوم، فإن العلوم وسائل ومقاصد، فنوع مقاصد: وهو الحق الذي يقوله اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله ونوع وسائل: وهو الهداية إلى السبيل إلى كل علم وعمل، كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] جمعت الكمال في ألفاظه ومعانيه: فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها وأحسنها تفسيرًا لكل ما تفسره من الحقائق بوضوحها وأحكامها وقوامها، ومعانيه كلها حق، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقًا وعدلا: صدقًا في أخبارها، وعدلا في أحكامها وأوامرها ونواهيها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فأحكامه على الإطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد، فهذا في شرعه ودينه ونظيره في خلقه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وقد جمع اللَّه في كتابه بين المتقابلات العامة، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٥] فإن البرّ اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من العقائد والأخلاق والأعمال، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من جميع المآثم والمضار، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٥] فالإثم المعاصي المتعلقة بحقوق اللَّه، والعدوان البغي على الخلق في الدماء والأموال والأعراض والحقوق.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] فجمع بين زاد سفر الدنيا وزاد سفر الآخرة بالتقوى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا اللباس الحسي الضروري والكمالي، ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فهذا اللباس المعنوي، وإن شئت قلت عن الأول إنه لباس البدن، وعن لباس التقوى إنه لباس القلب والروح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] جمع لهم بين نعيم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء ونعيم الباطن بكمال الفرح والسرور.

وكذلك قوله في صفة نساء الجنة: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر.

ولما ذكر السير الحسي ذكر السير المعنوي، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل: ٩].

وكذلك قوله: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ [النساء: ٧١] أي أفرادًا بدليل قوله: ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

وكذلك قوله: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥، ١٦] كذب الخبر وتولى عن الطاعة، و«التكذيب»: انحراف الباطن، و«التولي»: انحراف الظاهر، ونظيره قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨].

وضد ذلك ما رتب اللَّه على الإيمان والعمل الصالح من خير الدنيا والآخرة؛ فإن الإيمان ضد التكذيب، والتولي ضده الاستقامة والعمل الصالح.

وكذلك قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فاعبده وتوكل عليه تجمع جميع ما يراد من العبد. فالعبادة حق اللَّه على العبد، والإعانة من ربه إسعافه بما استعان عليه من عبودية ربه وغيرها من منافعه؛ فالعبد في عبادة للَّه واستعانة به.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة في الدنيا والآخرة، ونظيره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠]، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

وكذلك قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] في مواضع نفي جميع المكروه الماضي بنفي الحزن والمستقبل بنفي الخوف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩] «فالروح»: اسم جامع لنعيم القلب، و«الريحان»: اسم جامع لنعيم الأبدان، و«جنة نعيم» تجمع الأمرين.

وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤] أي: القرآن الذي أنزله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار.

وكذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] أي: متكبر على الحق جبار على الخلق. ومثله: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٢] ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: معتد في البغي على عباد اللَّه ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: متجرئ على محارم اللَّه.

وكذلك قوله في مواضع: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧] «فالولي»: الذي يجلب لموليه المنافع «والنصير»: الذي يدفع عنه المضار.

فوائد منثورة منوعة غير مرتبة

«**الأمة**»: جاء في القرآن لعدة معاني: جاء بمعنى الإمام الجامع لخصال الخير، مثل قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] وبمعنى الطائفة: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وهذا المعنى كثير، وبمعنى الملة والدين ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وبمعنى المدة الطويلة ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

«**السلطان**»: أكثر استعماله في القرآن بمعنى الحجة، مثل قوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [يونس: ٦٨] ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] ويأتي بمعنى الملك، مثل قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩] ويأتي بمعنى التسلط والسيطرة مثل قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

«**اللسان**»: ورد في القرآن لعدة معاني: ورد بمعنى الجارحة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة:٢٦] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [الفتح:١١] وهو كثير، وبمعنى اللغة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] وبمعنى الثناء الحسن ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

«**استوى**»: وردت في القرآن على ثلاثة أوجه: تارة تعدى بعلى فتدل على العلو والارتفاع، مثل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]. ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣] وتعدى بإلى فتدل على القصد مثل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩] وتأتي بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال، ومنه قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤] أي: كمل في عقله وأحواله كلها.

«**التأويل**»: أكثر وروده في القرآن بمعنى عاقبة الشيء وما يئول إليه ووقت وقوعه، مثل قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:٥٣] أي: وقوع المخبر به من العذاب ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠] أي: هذا ما آلت إليه وهذا وقوعها، وقد يأتي بمعنى التفسير وهو قليل، ومنه على أحد التفسيرين ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] أي: تفسيره، وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول، أي: وما يعلم حقيقة المخبر عنه إلا الله وحده، فعلى هذا المعنى يتعين الوقوف على الله وعلى المعنى الأول الذي بمعنى التفسير يعطف عليه ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] أي: ما

يعلم تفسير المتشابه الذي يتشابه فهمه على أذهان أكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم فإنهم يعلمون تأويله بهذا المعنى.

«**الغافل**»: ورد في القرآن بمعنى الجاهل، مثل قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦] وبمعنى النسيان لذكر الله ونسيان طاعته، كقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨].

فائدة: إخبار الله أنه مع عباده يرد في القرآن على أحد معنيين.

أحدهما: المعية العامة، كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧] أي: هو معهم بعلمه وإحاطته.

الثاني: المعية الخاصة، وهي أكثر ورودًا في القرآن، وعلامتها أن يقرنها الله بالاتصاف بالأوصاف التي يحبها والأعمال التي يرتضيها، مثل قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤] مع المحسنين، مع الصابرين ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] وهذه المعية تقتضي العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذي رتب عليه المعية.

ونظير هذا التقسيم وصف العباد بأنهم «عبيد لله» يرد في القرآن على نوعين: نوع عام، مثل قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] أي معبّدًا مملوكا لله والنوع الثاني العبودية

الخاصة، وهي تقتضي أن العبد بمعنى العابد المتعبد لربه القائم بعبوديته، وذلك مثل قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] فبحسب قيام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية اللّه.

ونظير هذا «القنوت» يرد في القرآن على قسمين: قنوت عام، مثل قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:٢٦] أي الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره.

النوع الثاني: وهو الأكثر في القرآن القنوت الخاص، وهو دوام الطاعة للّه على وجه الخشوع، مثل قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر:٩] ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٣٨] ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى﴾ [آل عمران:٤٣]﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] ونحوها.

فائدة: طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهما على الكبر والبطر والبغي على الحق وعلى الخلق، برهان ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٨] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦، ٧] فعلل هذا التجرؤ والطغيان بحصول الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء، أما الموفقون الأصفياء فإنهم في هذه الأحوال يخضعون للّه ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم، ولهذا لما رأى سليمان عليه السلام من ملكه ملكا كبيرا، ورأى عرش ملكة سبأ مستقرًّا عنده لم يطغ ويقل هذا من حولي وقوتي ونحوه، بل قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠] وقال قبل ذلك: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ

عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

فائدة: من الحكمة استعمال اللين في معاشرة المؤمنين، وفي مقام الدعوة للكافرين، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] فأمر باللين في هذه المواضع، وذكر ما يترتب عليه من المصالح، كما أن من الحكمة استعمال الغلظة في موضعها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]؛ لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة، بل قد تعين فيه القتال فالغلظة فيه من تمام القتال وقد جمع اللّه بين الأمرين في قوله في وصف خواص الأمة: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والفرق بين قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وبين قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. أن هداية الإرشاد والتعليم والبيان هي التي أثبتها لرسوله بل ولكل من له تعليم وإرشاد للخلق كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وأما هداية التوفيق ووضع الإيمان في القلوب فإنها مختصة باللّه، فكما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ويميت إلا اللّه فلا يهدي إلا اللّه.

والفرق بين التبصرة والتذكرة في مثل قوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] أن التبصرة هي العلم بالشيء والتبصر فيه، والتذكرة هي

العمل بالعلم اعتقادًا وعملا، وتوضيح هذا أن العلم التام النافع يفتقر إلى ثلاثة أمور: التفكر أولا في آيات اللَّه المتلوة والمشهودة، فإذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه فعرف ما تفكر فيه وفهمه، وهذا هو التبصر، فإذا علمه عمل به، فإن كان اعتقادًا وإيمانًا صدقه بقلبه وأقر به واعترف، وإن اقتضى عملا قلبيًّا أو قوليًّا أو بدنيًّا عمل به، وهذا هو التذكر وهو التذكرة، وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه، ومعرفة الباطل واجتنابه.

« والفرق بين المواضع التي وردت في القرآن أن الناس لا يتساءلون ولا يتكلمون، والمواضع التي ذكر فيها احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض من وجهين » أوجههما تقييد هذه المواضع بقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨] فإثبات الكلام المتعدد من الخلق يوم القيامة تبع لإذن اللَّه لهم في ذلك، ونفي التساؤل والكلام في الحالة التي لم يؤذن لهم. الوجه الثاني: ما قاله كثير من المفسرين إن القيامة لها أحوال ومقامات، ففي بعض الأحوال والمقامات يتكلمون وفي بعضها لا يتكلمون، وهذا الوجه لا ينافي الأول، فيقال هذه الأحوال والمقامات تبع لأذن اللَّه لهم أو عدمه.

« والفرق بين إثبات اللَّه في القرآن الأنساب بين الناس في مواضع كثيرة، ونفيها في مواضع » أن المواضع المنفية المراد بها أن الأنساب لا تنفع، كما أن جميع الأسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد، وهو الإيمان والعمل الصالح، كما ذكره في كتابه في مواضع، وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة، ويذكر في كل مقام بحسبه.

ففي مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بإلحاق الناقص من المؤمنين بالكامل من غير نقص لدرجة الكامل، مثل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢٠] أي: ما نقصناهم ومثل: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣] ونحوها وفي مقامات العدل والعقوبة يذكر الأنساب وأنها لا تنفع وأن الأمر أعظم من أن يلتفت الإنسان إلى أقرب الناس إليه مثل قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ [المعارج: ١١: ١٣] ومثل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤: ٣٧].

ونظير هذا الإخبار عن المجرمين أنهم يسألون عن أعمالهم، وذلك على وجه إظهار العدل والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة، وفي بعض المواضع مثل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] أي لا يحتاج في علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤاله سؤال استعلام؛ لأنها مسطرة عليهم قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح والأرض وغيرها.

فائدة: النفي المحض لا يكون كمالا، ولهذا في مقامات المدح كل نفي في القرآن فإنه يفيد فائدتين نفي ذلك النقص المصرح به وإثبات ضده ونقيضه، فيدخل في هذا أشياء كثيرة أعظمها أنه أثنى على نفسه بنفي أمور كثيرة تنافي كماله، نفي الشريك في مواضع متعددة فيقتضي توحده بالكمال المطلق، وأنه لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته،

وسبح نفسه في مواضع، وأخبر في مواضع عن تسبيح المخلوقات، ونفى عن نفسه الصاحبة والولد ومكافأة أحد ومماثلته وذلك يدل على كماله المطلق وتفرده بالوحدانية والغنى المطلق والملك المطلق. ونفى عن نفسه السنة والنوم والموت، لكمال حياته وقيوميته، ونفى كذلك الظلم في مواضع كثيرة وذلك يدل على كمال عدله وسعة فضله. ونفى أن يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أو يعجزه شيء، وذلك لإحاطة علمه وكمال قدرته ونفى العبث في مخلوقاته وفي شرعه، وذلك لكمال حكمته، وهذه فائدة عظيمة فاحفظها في خزانة قلبك؛ فإنها خير الكنوز وأنفعها.

وكذلك نفى عن كتابه القرآن الريب والعوج والشك ونحوها؛ وذلك يدل على أنه الحق في أخباره وأحكامه، فأخباره أصدق الأخبار وأحكمها وأنفعها للعباد، وأحكامه كلها محكمة في كمال العدل والحسن والاستقامة على الصراط المستقيم.

وقال عن نبيه ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] فنفى عنه الضلال من جميع الوجوه، وهو عدم العلم أو قلته أو نقصه أو عدم جودته والغيّ: سوء القصد، فيدل ذلك أنه أعلم الخلق على الإطلاق، وأهداهم وأعظمهم علما ويقينًا وإيمانًا، وأنه أنصح الخلق للخلق، وأعظمهم إخلاصًا للّه وطلبًا لما عنده، وأبعدهم عن الأغراض الرديئة، وكذلك نفى عنه كل نقص قاله أعداؤه فيه وأنه في الذروة العليا من الكمال المضاد لذلك النقص.

وكذلك نفى اللّه عن أهل الجنة الحزن والكدر والنصب واللغوب والموت وغيرها من الآفات، فيدل ذلك على كمال سرورهم وفرحهم واتصال نعيمهم وكماله، وكمال حياتهم وقوة شبابهم وكمال صحتهم وتمام نعيمهم الروحي والقلبي والبدني من كل وجه، وأنه لا أعلى منه حتى يطلب عنه حولا.

وعكس هذا ما نفى القرآن عنه صفات الكمال، فإنه يثبت له ضد ذلك من النقص، كما نفى عن آلهة المشركين جميع الكمالات القولية والفعلية والذاتية، وذلك يدل على نقصها من كل وجه وأنها لا تستحق من العبادة مثقال ذرة.

فائدة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧] أي القوة والشجاعة في هذه الآية، على أن الملك إذا اجتمعت فيه هاتان الخصلتان: العلم بالولاية والسياسة، وحسن التدبير والشجاعة والقوة فهو الذي يصلح للولاية والملك، وإن لم يكن من بيت الملك ولا ذا مال، فإن العبرة بجميع الولايات إمكان إقامتها والنهوض بها على أكمل الحالات، وولاية الملك لا تتم إلا بالعلم والشجاعة القلبية والبدنية.

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩] يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغي أن يؤتى من بابه، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها إليه، وذلك يقتضي معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل، والأقرب نجاحا، لا فرق بين الأمور العلمية

والعملية، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة، وهذا من الحكمة.

فائدة: لما ذكر اللَّه الأنبياء وأثنى عليهم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠] تدل على اتباع جميع الأنبياء في جميع هداهم، واللَّه هداهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم فكل أمر أثنى اللَّه فيه على أحد من أنبيائه من عقد أو خلق أو عمل، فإننا مأمورون بالاقتداء بهم، وذلك من هداهم وهو أيضًا من شريعتنا، فإن اللَّه أمرنا بذلك، كما أمرنا بالأوصاف العامة التي تدخل فيها مفردات كثيرة.

فائدة: إذا أمرنا اللَّه في كتابه بأمر كان آمرًا بذلك، وبكل أمر لا يتم إلا به. فالأمر مثلا بالصلاة أمر بالطهارة وستر العورة واجتناب النجاسة واستقبال القبلة وبجميع شروطها وأركانها، وكذلك هو أمر بمعرفتها ومعرفة ما لا تتم إلا به، وهذا من أعظم الأدلة على وجوب طلب العلم، فإن المأمورات يتوقف تكميلها على معرفتها، وكذلك إذا نهانا اللَّه عن شيء كان نهيًا عن كل وسيلة توصل إليه، والأمر بالجهاد أمر به وبكل ما يتوقف عليه في كل زمان ومكان، والأمر بتبليغ الشريعة أمر بكل ما يحصل به التبليغ ويتم ويكمل ويشمل، ويدخل في هذا إيصال الأحكام الشرعية وتبليغها للناس بجميع المقربات الحادثة.

فائدة: قد أخبر اللَّه في عدة آيات بهدايته الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وتوبته على كل مجرم، وأخبر في آيات أخر أنه ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨] ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:١٠٨] فما الجمع

بينها؟ فيقال: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] هي الفاصلة بين من هداهم اللَّه ومن لم يهدهم، فمن حقت عليهم كلمة العذاب؛ لعنادهم ولعلم اللَّه أنهم لا يصلحون للَّهداية، بحيث صار الظلم والفسق وصفًا لهم ملازما غير قابل للزوال ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق، فهؤلاء يطبع اللَّه على قلوبهم فلا يدخلها خيرٌ أبدًا، والجرم جرمهم فإنهم رأوا سبيل الرشد فزهدوا فيه، ورأوا سبيل الغي فرغبوا فيه واتخذوا الشياطين أولياء من دون اللَّه.

فائدة: ورد في كثير من الآيات إضافة الأمور إلى قدرة اللَّه ومشيئته وعموم خلقه، وفي آيات كثيرة إضافتها إلى عامليها وفاعليها، وهذه الآيات المتنوعة تنزل على الأصل العظيم المتفق عليه بين سلف الأمة، والذي دل عليه العقل والنقل، وهو أن جميع الأمور واقعة بقضاء اللَّه وقدره أعيانها وأوصافها وأفعالها وجميع ما حدث ويحدث، لا يخرج شيء منه عن قضائه وقدره. ومع ذلك فقد جعل اللَّه الحوادث تبعًا لأسبابها ولإرادة الفاعلين لها وقدرتهم عليها، فالآيات المتعددة المضافة إلى عموم قدره تدل على الأصل الأول، والآيات المتعددة المضافة إلى فاعليها تدل على الأصل الثاني، ولا منافاة بينهما، فإن أعمال العباد مثلا تقع بفعلهم وإرادتهم وقدرتهم، واللَّه خالقهم وخالق قدرتهم وإراداتهم وخالق السبب التام خالق للمسبب، ومع ذلك فقد جعلهم في أفعالهم وتركهم مختارين غير مجبورين.

فائدة: يختم اللَّه كثيرًا من الآيات عندما يبين للعباد الأصول والأحكام النافعة بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣] وهذا يدل على أمور:

منها: أن اللَّه يحب منا أن نعقل أحكامه وإرشاداته وتعليماته فنحفظها ونفهمها ونعقلها بقلوبنا ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها.

ومنها أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذي بينه بيانًا خاصًا، فإنه يحب أن نعقل بقية ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة، وأن نعقل آياته المسموعة وآياته المشهودة.

ومنها: أن في هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل اللَّه إلينا من أعظم ما يربي عقولنا ويجعلها عقولا تفهم الحقائق النافعة والضارة، وترجح هذه على هذه ولا تميل بها الأهواء والأغراض والخيالات والخرافات الضارة المفسدة للعقول.

وإذا أردت معرفة مقادير عقول الخلق على الحقيقة، فانظر إلى عقول المهتدين بهداية القرآن والسنة، وإلى عقول المنحرفين عن ذلك تجد الفرق العظيم، ولا تحسبن العقل هو الذكاء وقوة الفطنة والفصاحة اللفظية وكثرة القيل والقال، وإنما العقل الصحيح أن يعقل العبد في قلبه الحقائق النافعة، عقلا يحيط بمعرفتها ويميز بينها وبين ضدها، ويعرف الراجح من الأمور فيؤثره، والمرجوح أو الضار فيتركه، وبعبارة أخرى مختصرة نقول: العقل هو الذي يعقل به العلوم النافعة ويعقل صاحبه ويمنعه من الأمور الضارة.

فائدة: ورد في القرآن آيات عامة عطف عليه بعض أفرادها الداخلة فيها، وذلك يدل على فضيلة المخصوص وآكديته، وأن له من المزايا ما أوجب النص عليه، مثل قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٨] ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] وهو جبريل ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف:١٧٠] دخل فيه الدين كله ثم قال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٧٠] ومثله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت:٤٥] أي: اتبعه، ويدخل في ذلك جميع الشرائع، ثم قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت:٤٥] وذكر السبب في ذلك، إلى غير ذلك من الآيات التي إذا تأملت المخصوص من العام علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة.

فائدة لطيفة: في عدة آيات من القرآن إذا ذكر اللَّه الحكم لم ينص على نفس الحكم عليه، بل يذكر من أسمائه الحسنى ما إذا علم ذلك الاسم وعلمت آثاره، علم أن ذلك الحكم من آثار ذلك الاسم، وهذا إنهاض من اللَّه لعباده أن يعرفوا أسماءه حق المعرفة، وأن يعلموا أنها الأصل في الخلق والأمر، وأن الخلق والأمر من آثار أسمائه الحسنى، وذلك مثل قوله: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٦، ٢٢٧] فيستفاد أن الفيئة يحبها اللَّه وأنه يغفر لمن فاء ويرحمه، وأن الطلاق كريه إلى اللَّه، وأما المؤلي إذا طلق؛ فإن اللَّه تعالى سيجازيه على ما فعل من السبب وهو الإيلاء، والمسبب وهو ما

ترتب عليه، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣١] أي: فإنكم إذا علمتم ذلك رفعتم عنه العقوبة المتعلقة بحق اللَّه، وهذا كثير، وقد يصرح اللَّه بالحكم ويعلله بذكر الأسماء الحسنى المناسبة له.

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] جمع اللَّه فيها أمورًا كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل، فالأمر بالأكل والشرب يدل على الوجوب، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعًا، كما لا يتمكن من ذلك قدرًا ما دام عقله معه، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر اللَّه يكون عبادة، وأن الأصل في جميع المأكولات والمشروبات الإباحة، إلا ما نصّ الشارع على تحريمه لضرورة لإطلاق ذلك، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ويوافق لغناه وفقره، ويوافق لصحته ومرضه ولعادته وعدمها؛ لأنه حذف المأكول، والآية ساقها اللَّه لإرشاد العباد إلى منافعهم، وهي تدل على ذلك كله، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه ويقيم صحته وقوته، وعلى الأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن؛ لأنه لما أمر بالأكل والشرب نهى عن السرف، وعلى أن السرف منهي عنه، وخصوصًا في الأطعمة والأشربة؛ فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال.

أما ضرره الديني، فكل من ارتكب ما نهى اللَّه ورسوله عنه فقد انجرح دينه وعليه أن يداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع.

وأما ضرره العقلي، فإن العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الإسراف الضار، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله، فإنه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير.

وأما ضرره البدني، فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضر بدنه واعتراه أمراض خطرة، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء، ثم إنه ينضر أيضًا من وجه آخر، فإن من عود بدنه شيئًا اعتاده، فإذا عوده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتادًا له فتنحرف صحته.

وأما ضرره المالي فظاهر؛ فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] أي: تلام على ما فعلت؛ لأنه في غير طريقه ﴿مَّحْسُورًا﴾: فارغ اليد، وإخباره أنه لا يحب المسرفين، دليل على أنه يحب المقتصدين، ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله، وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها، فسبحان من جعل كتابه كنوزًا للعلوم النافعة المتنوعة.

فائدة: ذكر الله في كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة، ويجعل الموانع عليها من الران، والأكنة والحجاب، وبموتها

وبحيرتها، فاعلم أن القلب يكون صحيحًا ويكون مريضًا، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة، وقد، يكون لينًا وقد يكون قاسيًا.

فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع هذه الآفات، وهو القلب الذي صحت وقويت قوته العلمية، وقوته العملية الإرادية، وهو الذي عرف الحق فاتبعه بلا تردد، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف، فهذا هو القلب الصحيح الحي السليم، وصاحبه من أولي النهى وأولي الحجى وأولي الألباب وأولي الأبصار، والمخبت للَّه والمنيب إليه.

وأما القلب المريض فهو الذي انحرفت أحد قوتيه العلمية أو العملية أو كلتيهما. فمرض الشبهات والشكوك الذي هو مرض المنافقين لما اختل علمهم وبقيت قلوبهم في شكوك واضطراب ولم تتوجه إلى الخير، كان مرضها مهلكا.

ومرض الشهوات الذي هو ميل القلب إلى المعاصي مخل بقوة القلب العملية، فإن القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلا إلى الخير أو إلى ما أباحه اللَّه له، فمتى رأيت القلب ميالا إلى المعاصي سريع الانقياد لها؛ فهو مريض وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وأما القلب القاسي؛ فهو الذي لا يلين لمعرفة الحق، وإن عرفه لا يلين للانقياد له، فتأتيه المواعظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك، إما لقسوته الأصلية أو لعقائد منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها وصعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها، وقد يجتمع الأمران.

وأما الران والأكنة والأغطية التي تكون على القلوب، فإنها من آثار كسب العبد وجرائمه، فإذا أعرض عن الحق وعارض الحق، وجاءه الحق فرده وفتح اللَّه له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه، عاقبه اللَّه بهذا العمل بأن سد عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحه له ومتيسرة فتكبر عنها وردها، فطبع على قلبه وختم عليه وأحاطت به الجرائم ورانت عليه الذنوب وغطت قلبه وجعلت بينه وبين الحق حجابًا وأقفلت القلب، فهذه المعاني التي أكثر اللَّه من ذكرها في كتابه إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة في هذه الفائدة اتضحت لك معانيها وعرفت بذلك حكمة اللَّه وعدله في عقوبة هذه القلوب، وأن اللَّه ولاهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها.

فائدة: قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٢] جمع اللَّه فيها الحقوق الثلاثة: الحق المختص باللَّه الذي لا يصلح لغيره، وهو العبادة في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ والحق المختص بالرسول وهو التوقير والتعزير، والحق المشترك وهو الإيمان باللَّه ورسوله.

فائدة: ذكر اللَّه اليقين في مواضع كثيرة في القرآن في المحل العالي من الثناء، أخبر أن اليقين هو غاية الرسل لقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] وأنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين وأن الآيات إنما ينتفع بها الانتفاع الكامل الموقنون فحقيقة اليقين: هو العلم الثابت الراسخ التام المثمر للعمل القلبي والعمل البدني.

أما آثار اليقين العلمية فثلاث مراتب:

علم اليقين: وهي العلوم الناتجة عن الأدلة والبراهين الصادقة الخبرية، كجميع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصادقين.

وعين اليقين: وهي مشاهدة المعلومات بالعين حقيقة، كما طلب الخليل إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه الله ذلك بعينه، وغرضه ﷺ الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين.

وحق اليقين: وهي المعلومات التي تحقق بالذوق، كذوق القلب لطعم الإيمان، والذوق باللسان للأشياء المحسوسة.

وأما آثاره القلبية: فسكون القلب وطمأنينته، كما قال إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقال ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب». وفي لفظ: «الصدق ما اطمأن إليه القلب». فإن العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في علومه اطمأن قلبه لعقائد الإيمان كلها، واطمأن قلبه لحقائق الإيمان وأحواله التي تدور على محبة الله وذكره، وهما متلازمان، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فتسكن القلوب عند الأخبار فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، بل يفرح بذلك مطمئنًا عالمًا أن هذا أعظم فائدة حصلتها القلوب. ويطمئن عند الأوامر والنواهي مكملا للمأمورات تاركًا للمنهيات راجيًا لثواب الله واثقًا بوعده.

ويطمئن أيضًا عند المصائب والمكاره فيتلقاها بانشراح صدر واحتساب، ويعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فيخف عليه حملها ويهون عليه ثقلها، وقد علم بذلك آثارها البدنية، فإن الأعمال البدنية

مبنية على أعمال القلوب، فأهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال، فإن اليقين روح الأعمال والأخلاق وحاملها، والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه.

فائدة: الظن ورد في القرآن على وجهين، وجه محمود ووجه مذموم:

أما المحمود: ففي كل مقام مدح وجزاء بالخير والثواب، فإنه بمعنى العلم واليقين مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] أي: يتيقنون ذلك ومثل قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

أما المذموم: ففي أغلب الآيات الواردة في الظن مثل: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] وهو كثير، فهذا وما أشبهه فيمن قدم الظنون الكاذبة على الأخبار الصادقة؛ لأن الظن في الأصل يحتمل الصدق والكذب، ولكنه إذا ناقض الصدق قطعنا بكذبه.

فائدة: قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: ٣٩] تدل الآيتان على أن الزيادة من المحرمات، وخصوصًا المكاسب المحرمة، نقص في البركة، وقد ينسحت المال بذاته عاجلا أو آجلا، وعلى أن من أخرج شيئًا لله أو فعل شيئًا لله، فإن الله يزيده وينزل له البركة فإن المال وإن نقص حسا بما يخرج منه لله، فإنه يزداد معنى ووصفًا، وقد يفتح للعبد بسبب ذلك أبواب من الرزق أو يدفع عن العبد من أسباب النقص ما كان بصدد أن يصيبه.

فائدة: الفرح ورد في القرآن محمودًا مأمورًا به في مثل قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والإسلام، وكذلك قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠] فهذا فرح بثواب اللّه.

وورد منهيًّا عنه مذمومًا، مثل الفرح بالباطل وبالرياسات والدنيا المشغلة عن الدين في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] وقوله عن قارون: ﴿قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وما أشبه ذلك، فصار الفرح تبعًا لما تعلق به إن تعلق بالخير وثمراته فهو محمود، وإلا فهو مذموم.

فائدة: ورد «السعي» في القرآن في آيات كثيرة، والمراد به: الاهتمام والجد في العمل، مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] وقوله ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤] وآيات كثيرة كلها بمعنى الاهتمام للعمل، إلا في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠] فالمراد بذلك العدو، وهو يتضمن الأول وزيادة.

فائدة: أمر اللّه بالصدق وأثنى على الصادقين، وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقا في عقيدته، صادقًا في خلقه صادقًا في قوله وعمله، فهو الذي يجيء بالصدق في

ظاهره وباطنه، ويصدق بالصدق لمن جاء به، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق في كل حالة، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله فقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٤، ٣٥] وخواص أهل هذا الوصف هم الصديقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] والمراد الإيمان الكامل كما قال النبي ﷺ لما ذكر لأصحابه الغرف العالية التي يتراءاها أهل الجنة من علوها وارتفاعها ونورها كالكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، فقالوا: يا رسول اللَّه تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ فقال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا باللَّه وصدقوا المرسلين**»، وهؤلاء هم الهداة المهديون، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

فالصديقية شجرة أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب اللَّه وسنة رسوله وقوامها وروحها الإخلاص الكامل للَّه والإنابة إليه، والرجوع إليه في جميع الأحوال رغبة ورهبة ومحبة وتعظيمًا وخضوعًا وذلا للَّه، وثمراتها الأخلاق الحميدة والأقوال السديدة والأعمال الصالحة والإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان، وجهاد جميع أصناف المنحرفين، فهي في الحقيقة القيام بالدين ظاهرًا وباطنًا وحالا ودعوة إلى اللَّه، واللَّه هو الموفق وهو المعين لكل من استعان به صدقًا.

فائدة: قوله تعالى في المصطفين الذين أورثهم اللَّه الكتاب: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢] اشترك هؤلاء الثلاثة في أصل الإيمان، وفي اختيار اللَّه لهم من بين الخليقة وفي أنه من عليهم بالكتاب، وفي دخول الجنة، وافترقوا في تكميل مراتب الإيمان، وفي مقدار الاصطفاء من اللَّه وميراث الكتاب، وفي منازل الجنة ودرجاتها بحسب أوصافهم.

أما الظالم لنفسه، فهو المؤمن الذي خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكلية، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: من يرد القيامة وقد كفر عنه السيئات كلها إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية ينتفع بها في الدنيا أو عذب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه.

القسم الثاني: من ورد القيامة وعليه سيئات، فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع.

أحدها: من ترجح حسناته على سيئاته فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة اللَّه وبحسناته، وهي من رحمة اللَّه.

ثانيها: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أصحاب الأعراف، وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه، وفيه ما شاء اللَّه، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، كما وصف ذلك في القرآن.

ثالثها: من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع، من شفاعة الرسول له، أو شفاعة أحد من أقاربه أو معارفه ممن يجعل اللَّه لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على اللَّه وكرامتهم عليه، أو تدركه رحمة اللَّه المحضة بلا واسطة وإلا فلابد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة، ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها.

وأما المقتصد فهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات، ولم يكثر من نوافل العبادات، وإذا صدر منه بعض الهفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته، فهؤلاء أهل اليمين، وأما من كان من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٩١] فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار وسلم اللَّه لهم إيمانهم وأعمالهم فأدخلهم بها الجنة، كل على حسب مرتبته.

وأما السابق إلى الخيرات فهو الذي كمل مراتب الإسلام وقام بمرتبة الإحسان، فعبد اللَّه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وبذل ما استطاع من النفع لعباد اللَّه، فكان قلبه ملآن من محبة اللَّه والنصح لعباد اللَّه، فأدى الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته، فهؤلاء هم صفوة الصفوة، وهم المقربون في جنات النعيم إلى اللَّه، وهم أهل الفردوس الأعلى، فإن اللَّه كما أنه رحيم واسع الرحمة، فإنه حكيم ينزل الأمور منازلها ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه، فكما كانوا هم

السابقين في الدنيا إلى كل خير كانوا في الآخرة في أعلى المنازل، وكما تخيروا من الأعمال أحسنها جعل اللّه لهم من الثواب أحسنه، ولهذا كانت عين التسنيم أعلى أشربة أهل الجنة يشرب منها هؤلاء المقربون صرفا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجا في بقية أشربة الجنة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨].

وهكذا بقية ألوان وأصناف نعيم الجنة لهؤلاء السابقين منه أعلاه وأكمله وأنفسه، وإن كان ليس في نعيم الجنة دني ولا نقص ولا كدر بوجه من الوجوه، بل كل من تنعم بأي نعيم من نعيمها لم يكن في قلبه شيء أعلى منه، فإن اللّه أعطاهم وأرضاهم، وخيار هؤلاء الأنبياء على مراتبهم، ثم الصديقون على مراتبهم، ولكل درجات مما عملوا، فسبحان من فاوت بين عباده هذا التفاوت العظيم، واللّه يختص برحمته من يشاء، واللّه ذو الفضل العظيم.

فائدة: ورد في القرآن الظلم بمعنى الكفر والشرك الأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ونحوهما. وورد كثيرا بمعنى الجرائم التي دون الشرك كما سبق في الظالم لنفسه، ومثل ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠] وورد أيضا عدة آيات يدخل فيها هذا وهذا، ومثل هذا الفسق والمعصية والذنب والسيئة والجرم والخطيئة ونحوها، فإنها وردت في القرآن لكل واحد من هذه الثلاثة، فتفسر في كل مقام بما يناسب ذلك المقام.

فائدة: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧] جمعت السعادة وجميع الأسباب التي تنال بها السعادة، وهي ثلاثة أشياء: فعل المأمور، واجتناب المحظور، وتصديق خبر الله ورسوله. فهذه الثلاثة يدخل فيها الدين كله، وذلك أن قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ أي: جميع ما أمر به من قول وعمل ونية ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ جميع ما نهى عنه من كفر وفسوق وعصيان ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ بما أخبر الله به ورسوله من الجزاء، فصدق بالتوحيد وحقوقه وجزاء أهله، فمن جمع ثلاثة الأمور يسره الله لليسرى، أي لكل حالة فيها تيسير أموره وأحواله كلها، ومقابل هذا قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ [الليل: ٨] أي: ترك ما أمر به - ليس خاصًّا بالنفقة - بل معنى البخل: المنع، فإذا منع الواجبات المتوجهة إليه القولية أو الفعلية أو المالية؛ فقد بخل ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي: رأى نفسه غير مفتقر إلى ربه، وذلك عنوان الكبر والتجرؤ على محارم الله ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل: ٩] أي: بلا إله إلا الله وحقوقها وجزاء المقيمن لها والتاركين لها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ أي: لكل حالة عسرة في معاشه ومعاده.

فائدة: خطابات القرآن للناس خبرًا وأمرًا ونهيًا قسمان:

أحدهما: وهو الأكثر جدًّا خطاب عام يخاطب به جميع الناس ويتعلق الخبر أو الحكم فيهم في حالة واحدة، مثل الخبر عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومثل الأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والبر والصلة والعدل والنهي عن ضد ذلك، وهذا لأن القرآن هداية وبيان للناس، وهم مستوون في تعلق تلك الأحكام فيهم ما لم يمنع مانع عجز عن بعض الواجبات فيرتب عليه حكمه.

القسم الثاني: الخطاب العام من جهة الخاص من جهة أخرى، وذلك كالخطاب المتعلق بالعبادات المعلقة على أوقاتها، كالأمر بالصلوات الخمس لأوقاتها، كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨] وبالإمساك عن المفطرات، مثل قوله ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] فمن جهة أنه موجه إلى جميع المكلفين فإنه خطاب عام: جميع أهل المشارق والمغارب مخاطبون بذلك، ومن جهة أن لكل موضع حكما بنفسه، فإنه معلوم أن الوقت الذي تطلع فيه الشمس على هؤلاء أو تغرب، أو يطلع الفجر أو تزول الشمس غير الوقت الذي توجد فيه هذه الأمور عند الآخرين، فكل يخاطب بحسب حاله وحسب الموضع الذي فيه بلا ريب، ونظير هذا الأمر باستقبال القبلة للصلاة موجه إلى جميع أهل الأرض ومع ذلك فكل قطر ومحل فلهم جهة يتوصلون بها إلى الكعبة، ولهذا صرح اللَّه بهذا المعنى بقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٥٠] فالمقصود واحد والطرق والوسائل إلى هذا المقصود متباينة وكل أحد مأمور بطريقه الخاص، ونظير ذلك الإخبارات بطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها لو تحذلق جاهل فقال: إن مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦] أي: في البحر برؤية العين، وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] ينافي المعلوم، أن الشمس والقمر والكواكب لا تغرب عن الدنيا بالكلية، فيقال: هذا من الجهل والعجمة بمكان سحيق عن الحقائق، وذلك أن اللَّه لم يقل وجدها تغرب عن جميع الأرض أو تطلع على جميع

الأرض حتى يكون لهذا الجاهل اعتراض، بل أخبر عن غروبها وطلوعها عن ذلك الموضع وذلك القطر، كما يفهم الناس كلهم سابقًا ولاحقًا، ولا فرق بين الإخبارات والأحكام بوجه.

ومن المعلوم أن لكل أهل قطر مطلعًا ومغربًا، فهذه الخطابات في الأحكام والإخبارات في غاية الإحكام التي لا يتطرق إليها اعتراضات المعترض، ومن اعترض على شيء من ذلك عرف الناس أن ذلك من آثار جهله وحمقه؛ وهذا واضح لا يحتاج إلى كل هذا، يفهمه الذكي والبليد، وهذا مقتضى كون القرآن عربيًّا، أنزله اللّه بما يعقله العباد.

فائدة: ورد في القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود في النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤] وقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١] فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لا يخلد في النار إلا الكفار، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصي التي دون الكفر فإنهم لابد أن يخرجوا منها.

فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردها إلى هذا الأصل المجمع عليه بين سلف الأمة، وأحسن ما يقال فيها: إن ذكر الخلود على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر أنها من باب ذكر السبب، وأنها سبب للخلود في النار لشناعتها، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع.

ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الإيمان مانع من الخلود، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور، وهو أنه لا تتم الأحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها، وهذا واضح ولله الحمد، مع أن بعض الآيات المذكورة فيها ما يدل على أن الخطيئة المراد بها الكفر؛ لأن قوله ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١] دليل على ذلك؛ لأن المعاصي التي دون الكفر لا تحيط بصاحبها، بل لابد أن يكون معه إيمان يمنع من إحاطتها، وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤] فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغائر، ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الإشكال.

فائدة: ورد في القرآن آيات كثيرة فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، وورد أيضًا آيات أخر فيها مضاعفة أكثر من ذلك، فما وجه ذلك؟.

فيقال: أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلابد منها في كل عمل صالح كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] في عدة آيات.

وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب، إما متعلقة بنفس العامل أو بالعمل ومزيته أو نتائجه وثمراته أو بزمانه أو مكانه.

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول فمضاعفة الأعمال تبع لما يقوم بقلب العامل من قوة الإخلاص وقوة الإيمان.

وكذلك من الأسباب إذا كان العمل ناشئًا عن عقيدة صحيحة سلفية خالصة متلقاة من الكتاب والسنة، فهذا العبد يكون اليسير من عمله أبرك من الكثير من عمل من ليس كذلك.

ومن ذلك ترك ما تهواه النفوس من الفواحش، من قوة الداعي إليها لبرهان الإيمان والتوكل والإخلاص.

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيه نفع للمسلمين وغناء، وذلك كالجهاد في سبيل اللّٰه، الجهاد بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان، كما قال تعالى في نفقات أهل هذا الصنف: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ويدخل في هذا سلوك طريق التعليم والتعلم للعلوم الشرعية وما يعين عليها، وفي الحديث «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللّٰه له طريقا إلى الجنة».

ومن ذلك العمل والسعي في المشاريع الخيرية التي ينتفع بها المسلمون في دينهم ودنياهم ويتسلسل نفعها، ومن ذلك العمل الذي إذا عمله العبد كثر مشاركوه والمقتدون به فيه.

ومن ذلك إذا كان العمل له وقع عظيم ونفع كبير، كإنجاء المضطرين، وكشف كربات المكروبين، فكم من عمل من هذا النوع هدم اللّٰه به ذنوب العبد كلها وأوصله به إلى رضوانه وقصة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش شاهدة بذلك.

ومن ذلك علو مقام العامل عند اللَّه ورفعة درجته، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وقوله قبلها: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣١].

ومن ذلك الصدقة من كسب طيب وقوة إخلاص.

ومن ذلك العمل الواقع في زمان فاضل أو مكان فاضل.

ومن أهم وأعظم ما يضاعف به العمل تحقيق مقام الإحسان في القيام بعبودية اللَّه، وفي الحديث «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فالصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المطي.

وأسباب مضاعفة الثواب كثيرة، ولكن نبهنا على أصولها.

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الأوقات بقوة الإخلاص للَّه والنصح لعباد اللَّه، ومحبة الخير للمسلمين مع اللَّهج بذكر اللَّه لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وبقية الأعمال تبع لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم.

فائدة: قد أمر اللَّه في كتابه بالتفكر والتدبر والنظر والتبصر وغيرها من الطرق التي تنال بها العلوم، وأثنى على أهلها، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم، وأثنى على العلم واليقين ومدح أهلهما ومن نهج أي طريق يوصل إليها.

فاعلم أن الذي يجمع أشتات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية:

أحدها: طريق الإخبارات الصادقة. والثاني: طريق الحس. والثالث: طريق العقل، ووجه الحصر أن المعلومات إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق، وإما أن تدرك بالعقل، وإما أن تنال بالأخبار وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر، وخصوصًا العقل والأخبار الصادقة فإنهما لا يتفارقان.

وقد يكون العلم ضروريًّا بديهيًّا يضطر الإنسان إلى علمه والتصديق به من غير حاجة إلى زيادة نظر وتفكر. وقد يكون نظريًّا يحتاج إلى ذلك.

ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة.

وأعلى درجات العلم واليقين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر اللَّه وخبر رسله؛ فإنه لا أصدق من اللَّه قيلا، ولا أصدق منه حديثًا ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فكل ما قاله اللَّه وقاله رسوله فهو الحق والصدق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، وهو يهدي إلى كل دليل عقلي ونقلي، وفي خبر اللَّه وخبر رسله من البيان العظيم والتفصيلات لجميع أجناس العلوم النافعة ما لا تصل إليه علوم الخلائق كلهم أولهم وآخرهم.

وإذا أردت أن تعرف أن الحق الصحيح هو ما قاله اللَّه وقاله رسوله، وأن ما ناقضه ونافاه فهو باطل بلا ريب مبني على جهالات ومواد فاسدة.

فانظر إلى أصول الدين وقواعده وأسسه كيف اتفقت عليه الأدلة النقلية والعقلية والحسية. انظر إلى توحيد اللَّه ووجوب تفرده وإفراده بالوحدانية وتوحده بصفات الكمال، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة منها، بل هي المقصود الأعظم منها، وخصوصًا القرآن الذي هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها.

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وخصوصًا إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ على تقرير توحيد اللَّه وتفرده بالوحدانية وسعة الصفات وعظمتها من سعة العلم والحكمة وعموم القدرة والإرادة وشمول الحمد والملك والمجد والجلال والجمال والحسن والإحسان في أسمائه وصفاته وأفعاله، ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم في قلوب سادات الخلق أولي الألباب الكاملة والعقول التامة كيف تجده أعظم من كل شيء، وأقوى وأكبر من كل شيء وأوضح من كل شيء، وأنه مقدم عندهم على الحقائق كلها، وأنهم يعلمونه علمًا ضروريًّا بديهيًّا قبل الأدلة النظرية، ويعلمون أن كل ما عارضه فهو أبطل الباطل، ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة والمحسوسة الشاهدة للَّه بالوحدانية.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فوجود جميع الأشياء في العالم العلوي والسفلي وبقاؤها وما هي عليه من الأوصاف المتنوعة كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدها وممدها بكل ما تحتاج إليه، ومن أنكر هذا فقد باهت وكابر وأنكر أجلى الأمور وأعظم الحقائق.

ومن هنا تعلم أن الماديين الملحدين أضل الخلق وأجهلهم وأعظمهم غرورًا واغترارًا حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الأرضي المادي الطبيعي، وقفت عقولهم القاصرة عندها واستولت عليهم الحيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا: نثبت ما وصلت إليه معارفنا وننفي ما سواه، فتعرف بهذا أن نفيهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء، فإن من نفى ما لا يعرفه فقد برهن على كذبه وافترائه، فكما أن من أثبت شيئا بلا علم فهو ضال غاو، فكذلك من نفى شيئا بلا علم، وتعرف أيضًا أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التي عرفوها وانتهت إليها معارفهم أن هذا الإثبات منهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها، بل عرفوا ظاهرًا منها وهم عن النافع غافلون، فأثبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود، وهم في علمهم هذا حائرون، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور، ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة، فهم دائمًا في خلط وخبط وتناقض، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا: هذا من فلتات الطبيعة، وكلما برز مبرز من فحولهم وأذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه، فصدق عليهم قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥] وقوله ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣].

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم، ولم يقدح فيه

إلا هؤلاء الضلال الذين كان قدحهم فيه أسقط اعتبارهم وبرهن على فساد عقولهم.

وانظر إلى الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة، وأن اللَّه قد أقام على صدق رسله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر، وخصوصًا محمد ﷺ، فإن آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة: سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم، وحثه على كل خلق كريم وعمل صالح ونفع وإحسان وعدل، ونهيه عن ضد ذلك، وما جاء به من الوحي: الكتاب والسنة، كله جملة وتفصيلا براهين على نبوته وصدقه مع ما أكرمه اللَّه به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها، ومن إجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تعد أنواعها فضلا عن أفرادها، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة، وعن عجز المعارضين له في مقامات التحدي كلها وعجزهم عن نصر باطلهم ولا يزال الباطل بين يدي ما جاء به الرسول مخذولا زاهقًا، بحيث إن القائمين بما جاء به الرسول القائمين بمعرفة دينه يتحدون جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أو فلاح أو رقي حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها، وأنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد إليه ودل الخلق عليه، ولولا الجهل بما جاء به الرسول والتعصبات الشديدة من الأعداء والمقامات العنيفة، وإقامة الحواجز المتعددة العنيفة لمنع الجماهير والدهماء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح، لم يبق على وجه الأرض دين سوى دين محمد ﷺ لدعوته وإرشاده وحثه على كل صلاح وإصلاح وخير ورشد، ولكن مقاومات الأعداء ونصر القوة

للباطل بالتمويهات والتزويرات وتقاعد أهل الدين عن القيام به ونصرته هي التي منعت أكثر الخلق من الوقوف على حقيقته.

ثم انظر إلى الأصل الثالث وهو إثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب السماوية والرسل العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الإيمان به والاعتراف التام به، وكم أقام اللَّه عليه من الأدلة النقلية والعقلية، وكذلك الحسية المشاهدة ما يدل أكبر دلالة عليه، وكم أشهد عباده في هذه الدار أنموذجًا من الثواب والعقاب، وأراهم حلول المثلات بالمكذبين، وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين، كما أراهم نجاة الرسل ومن تبعهم من المؤمنين وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة، وكم أبطل اللَّه كل شبهة يقدح بها المكذبون بالمعاد، كما أقام الأدلة على إبطال الشبه الموجهة من المكذبين إلى توحيده وصدق رسله، وبين سفههم وفساد عقولهم، وأنه ليس لهم من المستندات على إنكار ذلك إلا استبعادات مجردة، وقياس قدرة رب العالمين على قدرة المخلوقين.

والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين القواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار، وجميع الحقائق الصحيحة غيرها لم يقم على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة، ففي هذا دليل على أن كل من أثبت معلومًا أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلي أو خبري أو حسي، ثم نفى مع ذلك واحدًا من هذه الأصول الثلاثة التي هي أساس الدين، فقد كابر عقله وحسه وعلمه ونادى على نفسه بالتناقض العظيم؛ لأن الطرق التي دلته على

إثبات معلوماته هي وأضعافها وأضعاف أضعافها وما هو أقوى منها وأوضح قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد.

واعلم أن المعلومات بخبر اللَّه وخبر رسله عامة يدخل فيها الإخبار عن اللَّه وعن ملائكته وعن الغيوب كلها وأمور الشرع والقدر، وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يعلم كذب ما خالفها وبطلانه. ولنكتفي بهذا الأنموذج من الأمثلة، واللَّه أعلم.

وبعد هذا إخبار الصادقين عن المواضع والحوادث والوقائع التي شاهدوها، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين، وتواتر خبرهم يفيد العلم القطعي. وكذلك إخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها والألفاظ التي نقلوها، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة المحمدية، لشدة عنايتهم وكمال صدقهم وقوة دينهم، وأنهم بالخصوص حفظوا عن الخطأ العمومي، والاتفاق على غير الصواب.

ومن الأمور التي تعلم بالعقل أن العقول الصحيحة التي لم تتغير فطرتها، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة، تعلم علمًا يقينا حسن التوحيد والإخلاص للَّه، كما تعلم قبح الشرك، وتعلم حسن الصدق والعدل والإحسان إلى المخلوقين، كما تعلم قبح ضده، وتعلم وجوب شكر المنعم ووجوب بر الوالدين وصلة الأقارب، والقيام بحق من له حق عليك، وتستحسن كل صلاح وإصلاح، وتستقبح كل فساد وضرر.

ومن أشرف ما يعلم بالعقل أنه مركوز في العقول أن الكمال المطلق للَّه وحده، وأن له الحكمة التامة في خلقه وشرعه، وأنه لا يليق به أن يترك خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون. ومن

المعلوم بالحس ما يدرك بالحواس، كسمع الأصوات وإبصار الأعيان وهو من أتم المعارف، فإنه ليس الخبر كالمعاينة، ومما يدرك بالحس ما يدرك بالشم، كشم الروائح الطيبة والخبيثة، وما يدرك باللمس، كالحرارة والبرودة، وما يدرك بتحليل الأشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها، كل هذا من مدركات الحس وبالجملة فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جدًّا، وكلما كان الشيء أعظم ومعرفته أهم، كانت الطرق الموصلة إليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى، كما تقدمت الإشارة إلى التوحيد والرسالة والمعاد، والله أعلم.

فائدة: لما ذكر البارئ نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف:١٣، ١٤] ذكر فيها أركان الشكر الثلاثة: وهي الاعتراف والتذكر لنعمة الله، والتحدث بها والثناء على الله بها، والخضوع لله والاستعانة بها على عبادته؛ لأن المقصود من قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ الاعتراف بالجزاء والاستعداد له، وأن المقصود من هذه النعم أن تكون عونًا للعبد على ما خلق له من طاعة الله، وفي قوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم النعم وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر.

فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها

وبقاءها ودفع ما يضادها أو ينقصها كله من فضل اللَّه وإحسانه ليس من العبد شيء، خضع للَّه وذل وشكره وأثنى عليه وبهذا تدوم النعمة ويبارك اللَّه فيها، وتكون نعمة حقيقية، فأما إذا قابلها بالأشر والبطر ونسي المنعم، وربما تكبر بها على عباد اللَّه، فهذه نقمة في صورة نعمة، وهي استدراج من اللَّه للعبد سريعة الزوال وشيكة بالعقاب عليها والنكال، نسأل اللَّه أن يوزعنا شكر نعمه.

فائدة: بل فوائد عظيمة في ذكر شيء من الأسباب التي ذكرها اللَّه في كتابه موصلة إلى المطالب العالية

لا ريب أن من حكمة اللَّه ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية وإلى دفع المضار الدينية والدنيوية، فاقتضت حكمته وسنته التي لا تتبدل أن هذه المنافع المتنوعة وخصوصًا الأمور العظام لا تحصل إلا بالسعي بأسبابها الموصلة إليها، وكذلك المضار لا تندفع إلا بالسعي بالأسباب التي تدفعها، وقد بين في كتابه غاية التبيين هذه الأسباب وأرشد العباد إليها فمن سلكها فاز بالمطلوب ونجا من كل مرهوب.

فأصل الأسباب كلها الإيمان والعمل الصالح، جعل اللَّه خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين، وقد ذكر اللَّه في القرآن من هذا شيئًا كثيرًا جدًّا، وقد تقدم في هذا الكتاب شيء من ذلك عند ذكر فوائد الإيمان.

وجعل اللَّه القيام بالعبودية، والتوكل سببًا لكفاية اللَّه للعبد جميع مطالبه، شاهده قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] أي بمن يقوم بعبوديته ظاهرًا وباطنًا.

وجعل اللَّه التقوى والسعي والحركة سببًا للرزق، شاهده قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

وجعل اللَّه التقوى والإيمان وتكرار دعوة ذي النون سببًا للخروج من كل كرب وضيق وشدة، شاهده الآية السابقة، وكذلك قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وجعل اللَّه الدعاء والطمع في فضله سببًا لحصول جميع المطالب، دليله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وجعل اللَّه الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى الخلق سببًا يدرك به فضله وإحسانه العاجل والآجل، شاهده الآية السابقة ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ومن أحبه اللَّه نال جميع ما يطلب.

وجعل اللَّه التوبة والاستغفار والإيمان والحسنات والمصائب مع الصبر عليها أسبابًا لمحو الذنوب والخطايا، شاهده قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

وجعل اللَّه الصبر سببا وآلة تدرك بها الخيرات ويستدفع بها الكريهات، شاهده الآية السابقة وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] أي على جميع أموركم. ولما ذكر اللَّه ما وصل إليه أهل الجنة من كمال النعيم وزوال كل محذور، ذكر أن هذا أثر صبرهم، فقال ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٤] وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الفرقان:٧٥].

ومنه أنه جعل الصبر واليقين تنال بهما أعلى المقامات، وهي الإمامة في الدين، دليله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وجعل اللَّه مفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإنصات والتعلم والتقوى وحسن القصد، شاهده قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] أي نورًا وعلمًا تفرقون به بين الحقائق كلها، وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وجعل اللَّه الاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة، وأخذ الحذر منهم سببًا لحصول النصر والسلامة من شرورهم، شاهده قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وجعل اللَّه اليسر يتبع العسر، والفرج عند اشتداد الكرب، شاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وجعل اللَّه الشكر سببًا للمزيد منها ومن غيرها، وكفران النعم سببًا لزوالها، شاهده قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وجعل اللَّه الصبر والتقوى سببًا للعواقب الحميدة والمنازل الرفيعة، شاهده قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وجعل اللَّه الجهاد سببا للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم شاهده قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] وقوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤].

وجعل اللَّه لمحبته التي هي أعلى ما ناله العباد أسبابا، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد ﷺ في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال، قال

تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ومن أسبابها ما ذكره بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وقوله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقوله: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] وقوله: ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وجعل اللَّه النظر إلى النعم والفضل الذي أعطيه العبد وغض النظر مما لم يعطه سببا للقناعة شاهده قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وجعل اللَّه القيام بالعدل في الأمور كلها سببا لصلاح الأحوال، وضده سببا لفسادها واختلافها شاهده قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٩:٧].

وجعل اللَّه كمال إخلاص العبد لربه سببا يدفع به عنه المعاصي وأسبابها وأنواع الفتن، شاهده قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وجعل اللَّه قوة التوكل عليه مع الإيمان حصنا حصينا يمنع العبد من تسلط الشيطان خصوصا إذا انضم إلى ذلك الإكثار من ذكر اللَّه والاستعاذة باللَّه من الشيطان، شاهده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] إلى آخرهما.

وجعل اللَّه مفتاح الإيمان واليقين التفكر في آيات اللَّه المتلوة وآياته المشهودة والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة، شاهده قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] والأمر بالتفكر بالمخلوقات في عدة آيات، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] فهي سبب للإيمان، والإيمان موجب للانتفاع بها.

وجعل اللَّه القيام بأمور الدين سببًا لتيسير الأمور، وعدم القيام بها سببًا للتعسير، شاهده قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

وجعل اللَّه العلم النافع سببا للرفعة في الدنيا والآخرة، شاهده قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وجعل اللَّه كون العبد طيبا في عقيدته وخلقه وعمله سببا لدخول الجنة وللبشارة عند الموت شاهده قوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢].

وجعل اللَّه مقابلة المسيء بالإحسان، وحسن الخلق سببا يكون به العدو صديقا، وتتمكن فيه صداقة الصديق، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت: ٣٤] وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وبذلك تحصل الراحة للعبد وتتيسر له كثير من أحواله.

وجعل اللَّه الإنفاق في محله سببا للخلف العاجل والثواب الآجل، شاهده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وجعل اللَّه لرزقه أبوابا وأسبابا متنوعة، فمتى انغلق عن العبد باب منها فلا يحزن؛ فإن اللَّه يفتح له غيره، وقد يكون أقوى منه وأحسن، وقد يكون مثله ودونه، شاهده قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨].

وجعل اللَّه التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقًا سهلًا هينًا لتركها شاهده قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧] أي محارمه ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإذا قيل مثل هذه الآية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ كان المراد بالحدود المحارم، وأما إذا قيل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] فهذه الحدود التي حددها اللَّه للمباحات فعلى العبد ألا يتجاوزها؛ لأنه إذا تجاوز المباح وقع في المحرم، فافهم الفرق بين الأمرين. وجعل اللَّه السبب الوحيد القوي المثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ما تضمنته هذه الآية: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] فالحكمة وضع الدعوة في موضعها، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب

لحصول المقصود منه ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ البالغة في الحسن مبلغًا، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال، فالموعظة بيان الأحكام مع ذكر ما يقترن بها من الترغيب في ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها، وذكر ما يقترن بها من الترغيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والحسرات وحرمان الخير العاجل والآجل.

(والمجادلة بالتي هي أحسن) بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة.

وقد علم اللَّه مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام كل يدعى بالطريق التي تناسبه:

القسم الأول: المنقادون الملتزمون الراغبون في الخير، الراهبون من الشر، فهؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح. فقط يكتفى ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض.

والقسم الثاني: الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادة عن الحق، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب؛ لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعها، ولا تترك أغراضها الصادة لها عن الحق علمًا وعملا إلا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذكر ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة.

والقسم الثالث: المعارضون أو المعاندون المكابرون المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل فهؤلاء لابد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن بحسب ما يليق بالمجادِل والمجادَل وبتلك المقالة وما يقترن بها، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تمامًا فانظر إلى دعوات الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم التي حكاها اللَّه في كتابه مع أممهم المستجيبين والمعرضين والمعارضين تجدها محتوية على غاية الحسن في كل أحوالها.

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وما سلك من الطرق المتنوعة في دعاية الخلق عموما وخصوصا على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم، وبحسب الأقوال والأحكام التي يدعو إليها، تجده قد فاق في ذلك الأولين والآخرين، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر.

وجعل اللَّه السبب لفصل الخصام المرضي للمتشاجرين المنصفين في جميع المقالات، الذي هو خير في الحال وأحسن في المآل، ردها إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، شاهده قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وجعل اللَّه صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سببًا تنال به مكارم الأخلاق ويتبوء به المنازل العالية في جنات النعيم، شاهده قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ إلى قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢١: ٢٣].

وجعل اللَّه السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه في حال الرخاء سببًا للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد، شاهده قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤] وقول أهل الجنة فيها: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٦ : ٢٨].

وجعل اللَّه لشرح الصدر ونعيمه وطمأنينته أسبابا متعددة: اليقين والإيمان والإكثار من ذكر اللَّه وقوة الإنابة إليه، والقناعة بما أعطى من الرزق، وحصول العلم النافع، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها، وشواهد هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزمر:٢٢] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣] وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب في الدنيا ظاهر ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧] ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٤، ١٥].

وجعل اللَّه ضرب الأمثال في كتابه طريقًا عظيمًا من طرق التعليم الذي تتبين وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة، كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقة الصحيحة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم:٢٤] في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا﴾ من الأعمال

والأخلاق ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] أي: منافعها ﴿كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع. ومثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون، والموحد المخلص للَّه السالم من تعلقه بغيره.

وكذلك مثل الشرك والمشرك واتخاذه وليًا من دون اللَّه يتعزز به وينتصر ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١] ومثل وحيه بمنزلة الغيث النافع، وقلوب الخلق بمنزلة الأراضي الطيبة القابلة والخبيثة، وبين ذلك، وهي أمثلة محسوسة يوضح اللَّه بها المطالب النافعة، وهو يقسم تعالى على أصول الدين التي يجب على الخلق الإيمان بها: كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها، وضرب الأمثال من تصريف اللَّه الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق، فتأمل إقسامات القرآن تجدها كذلك، ولذلك حث اللَّه عليها ومدح من يتفكر فيها ويعقلها، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] وفي الآية الأخرى ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* * *

فصل

في ذكر حدود ألفاظ كثر مرورها في القرآن أمرًا بها أو نهيًا عنها أو مدحًا لها أو ذمًّا لها

فاللَّه تعالى أثنى على من عرف حدود ما أنزل على رسوله وذم من جهلها، وهذه ألفاظ جليلة يتعين على طالب العلم معرفة حدودها ليعرف ما يدخل فيها وما يخرج منها، وتتفق الألفاظ المأمور بها في كثير من الأمور، وقد يكون بينها فروق، وكذلك المنهيات، وهذا من إحكام القرآن، وأنه يصدق بعضه بعضًا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

«**الإسلام والإيمان**»: أما الإسلام فهو استسلام القلب للَّه وإنابته، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة، وأما الإيمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التي أمر اللَّه بالإيمان بها، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، ولهذا سمى اللَّه كثيرًا من الشرائع الظاهرة والباطنة إيمانًا، وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الإيمان فعلى هذا: الإيمان عند الإطلاق يدخل فيه الإسلام، وكذلك بالعكس، وإذا جمع بين الإيمان والإسلام فسر الإيمان بما في القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك، وفسر الإسلام بالقيام بعبودية اللَّه كلها، الظاهرة والباطنة.

« **الإحسان** »: قسمان: إحسان في عبادة الخالق، وهو بذل الجهد في إكمالها وإتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة. وإحسان إلى المخلوقين بإيصال جميع ما يستطيعه العبد من نفع علمي وبدني ومالي للخلق ونصيحة دينية أو دنيوية ومساعدة وحض على الخير؛ ولهذا كان المحسنون يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا بحسب قيامهم بالإحسان المتنوع إلى الخلق، برهم وفاجرهم، حتى الحيوان البهيم، كما قال ﷺ : « **إن الله كتب الإحسان على كل شيء** »[1] الحديث.

« **الهدى والهداية** » : نوعان : « هداية العلم والإرشاد والتعليم »، « وهداية التوفيق » وجعل الهدى في القلب، وهذان يطلبان من اللَّه تعالى، إما على وجه الإطلاق كقول العبد: اللَّهم اهدني، أو اللَّهم إني أسألك الهدى، وإما على وجه التقييد بطريقها النافع، كقول المصلي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] ومن حصلت له الهداية سمي مهتديًا، وأعظم ما تحصل به الهداية القرآن، ولهذا سماه اللَّه هدى مطلقًا، فقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] ويشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية النافعة.

« **العلم واليقين** » : فالعلم هو تصور المعلومات على ما هي عليه، ولهذا يقال: العلم ما قام عليه الدليل والعلم النافع ما كان مأخوذًا عن الرسول، واليقين أخص من العلم بأمرين . **أحدهما**: أنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع، ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر، ولهذا يقال ليس الخبر كالمعاينة، وحق يقين إذا ذاقه العبد وتحقق به.

(١) رواه مسلم.

الأمر الثاني: أن اليقين هو العلم الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر اللَّه، والطمأنينة بذكر اللَّه، والصبر على المكاره، والقوة في أمر اللَّه والشجاعة القولية والفعلية، والاستحلاء للطاعات وأن يهون على العبد في ذات اللَّه المشقات وتحمل الكريهات، فهذه الآثار الجميلة التي هي أعلى وأحلى من كل شيء من آثار اليقين.

«**الصبر**»: حبس النفس على المشقات طلبًا لرضا اللَّه، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على طاعة اللَّه، وخصوصًا الطاعات الشاقة، حتى يؤديها على وجه الكمال، وصبر على معصية اللَّه، خصوصًا المعصية التي تدعو النفس إليها دعاء قويًا، حتى يجاهد نفسه فيتركها للَّه، وصبر على أقدار اللَّه المؤلمة، خصوصا إذا عظمت المصيبة، حتى لا يتسخطها، وربما وصلت به الحال إلى الرضا عن اللَّه.

«**الشكر للَّه**»: هو الاعتراف بنعم اللَّه الظاهرة والباطنة، العامة والخاصة، والتحدث بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته، ولابد أن يقترن هذا بالخضوع للمنعم ومحبته، فبهذه الأركان الخمسة يكون الشكر تامًّا.

«**البر والتقوى للَّه**»: إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر؛ فإنه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه اللَّه ورسوله ظاهرًا وباطنًا، وترك ما يكرهه اللَّه ورسوله ظاهرًا وباطنًا، وإذا جمع بينهما نحو: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] فسر البر بالقيام بعقائد الإيمان وأخلاقه، وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية وفسرت التقوى باتقاء ما يسخط اللَّه من الكفر والفسوق والعصيان.

« **الصدق والكذب** » : الصدق هو استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم فالصدق في العقائد أن تكون عقيدة العبد صادقة سلفية متلقاة عن كتاب اللَّه وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة - رضي اللَّه عنهم - والصدق في الأخلاق أن يكون القلب ملآن من الإيمان والإخلاص والرغبة والنصيحة لعباد اللَّه ومحبة الخير لهم، والصدق في الأقوال أن يكون قائلا للصدق مصدقًا به، والصدق في الأعمال الاجتهاد، في تكميلها وإتقانها، والكذب ما ناقض ذلك كله، ولذلك كان الصدق والكذب مراتب، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللَّه صديقًا، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند اللَّه كذابًا.

« **العدل والظلم** » : العدل هو سلوك الطريق المستقيم المعتدل في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال كما يقال في الصدق، والظلم ما ناقض ذلك، ولهذا انقسم الظلم إلى ثلاثة أقسام كلها منافية للعدل: الظلم في التوحيد بالإشراك باللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وظلم العبد نفسه فيما دون الشرك، ولا يتم للعبد العدل الكامل حتى يدع جميع هذه الأقسام، ويتوب إلى ربه مما وقع منه، ويخرج من حق العباد إليهم، ولهذا كان القيام بالدين كله من العدل والقسط.

« **العبادة والعبودية للَّه** »: اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، فكل ما يقرب إلى اللَّه من الأفعال والتروك فهو عبادة، ولهذا كان تارك المعصية للَّه متعبدًا متقربًا إلى ربه بذلك، ولا تتم العبادة إلا بالإخلاص.

«**الإخلاص لله وحده**»: بأن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه في أعماله الظاهرة والباطنة، وضده العمل للرياء والسمعة ولأجل عرض الدنيا وميزان هذا قوله تعالى عن خيار الخلق: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: ٢] وقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» وجميع الأعمال على هذا النمط، وقد يراد بالهجرة هنا الهجرة العامة التي قال فيها النبي ﷺ: «**والمهاجر من هجر ما نهى الله ورسوله عنه**»[١].

«**الخوف والخشية والخضوع والإخبات والوجل**»: معانيها متقاربة فالخوف يمنع العبد عن محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله، وأما الخضوع والإخبات والوجل: فإنها تنشأ عن الخوف والخشية لله فيخضع العبد لله ويخبت إلى ربه منيبًا إليه بقلبه ويحدث له الوجل، وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه، فهذا خشوع خاص، وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته فيستولي ذلك على القلب كما تستولي المحبة.

«**القنوت**»: ورد في القرآن على أحد معنيين معنى خاص بمعنى الخشوع، ومعنى عام وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه.

«**الذكر لله**»: الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله، وما رتب عليه من الجزاء يطلق عليه جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية، فكل ما تصوره القلب أو أراده أو فعله العبد أو تكلم به مما

يقرب إلى اللَّه فهو ذكر للَّه، واللَّه تعالى شرع العبادات كلها لإقامة ذكره، فهي ذكر للَّه ويطلق على ذكر اللَّه باللسان بذكر أوصافه وأفعاله والثناء عليه بنعمه وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبي ﷺ. ومن ذكره ذكر أحكامه تعلمها وتعليمها، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر، وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان.

« **حدود اللَّه** »: يراد بها ما حرمه ومنعه عباده، فيقال فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] ويراد بها ما أباحه وأحله لعباده وقدره وفرضه، فيقال فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] أي لا تجاوزوا ما أحل اللَّه إلى ما حرم اللَّه، ولا تتجاوزوا ما قدره اللَّه للعباد إلى ما يخالف تقديره.

« **الأمانة** »: هي الأمور التي يؤتمن عليها العبد فتشمل الأمانة التي بينه وبين اللَّه، فإنه ائتمن عبده على إقامة الواجبات وترك المحرمات، فالقيام بذلك أداء للأمانة ومراعاة لها، وترك بعض الواجبات وخصوصا السرية التي لا يطلع عليها إلا اللَّه أو التجرؤ على بعض المحرمات ترك للأمانة واتصاف بالخيانة، ويشمل أيضا الأمانات التي بينك وبين الخلق في الدماء والأموال والحقوق فمن قام بها فقد أدى الأمانة وحفظها، ومن تعدى فيها أو فرط أو خان فقد تجرأ على الخيانة.

« **العهد والعقد** »: يشمل العهود والعقود التي بين العبد وبين ربه؛ فإن اللَّه عقد بينه وبين المكلفين عقدًا وعاهدهم عهدًا بإقامة ما خلقوا له من عبادته والقيام بحقوقه، فإقامة ذلك وفاء لهذا العقد والعهد وإهماله

نقض للعهد والعقد والثقة وكذلك العهود والعقود التي بينه وبين الخلق يتعين الوفاء بها، ويشمل ذلك عقود المعاملات كلها من دون استثناء.

«**الشجاعة والجبن والتهور**»: أثنى اللَّه في كتابه على الشجاعة ومدح أهلها وأمر بها، وذم الجبن والتهور، فالشجاعة قوة القلب وثباته وإقدامه على الأقوال والأفعال في موضع الإقدام بحكمة وحنكة، فإن أقدم عليها في حلال لا يحل له الإقدام قيل لذلك تهور وجراءة وحمق وإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وأما الجبن فهو ضد الشجاعة ضعف القلب وخوره، ويتبع ذلك خور الأعمال والخوف مما لا يخاف وهيبة من لا يهاب، فالشجاعة خلق فاضل جليل بين خلقين ذميمين رذيلين، بين التهور الذي هو غلو وزيادة في الحد، وبين الجبن الذي هو تفريط وتقصير وضعف وخور، ونظير ذلك.

«**القوام والبخل والتبذير**»: في تصريف الأموال بذلها فيما ينبغي من واجب ومستحب ونافع على الوجه الذي ينبغي، يقال لذلك قوام واعتدال وتوسط واقتصاد، فإن منع الواجبات فهو البخل وصاحبه بخيل، وإن أسرف وزاد في النفقة عما ينبغي قيل لذلك إسراف وتبذير، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

«**الاستقامة**»: هي لزوم الصراط المستقيم بأن يستقيم العبد على الإيمان باللَّه وأداء فرائضه وترك محارمه مداومًا لذلك تائبًا مما أخل به من حقوقها، ولهذا قال: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦] أي مما وقع منكم من الخلل في الاستقامة.

« **التوبة والاستغفار** »: أما التوبة فهي الرجوع إلى اللّه مما يكرهه اللّه ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه اللّه ظاهرًا وباطنًا ندمًا على ما مضى وتركًا في الحال وعزمًا على أن لا يعود، والاستغفار طلب المغفرة من اللّه، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذي رتبت عليه المغفرة، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب، وهو بنفسه عبادة من العبادات، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة.

« **التوكل على اللّه والاستعانة به** »: بمعنى واحد هو اعتماد القلب على اللّه في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية الخاصة والعامة مع الثقة باللّه في ذلك المطلوب.

« **المحبة للّه والإنابة إلى اللّه** »: هي قوة الود للّه لكماله ونعمه الظاهرة والباطنة، وانجذاب القلب إلى اللّه تألهًا ورغبة ورهبة في كل المطالب وطمأنينة القلب بذكره وبدعائه والرجوع إليه في الأمور الدينية والدنيوية الجليلة والحقيرة فمن كان قلبه منيبًا إلى اللّه فهو محب للّه، والمنيب هو الأواه الرجاع إلى اللّه الأواب إليه.

« **المعروف والمنكر** »: متقابلان، فالمعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، والمنكر ضده.

« **الخبيث والطيب** » : متقابلان، فالطيب ما كان طيب الصفات كثير المنافع، والخبيث بالعكس.

« **حسن الخلق وسوء الخلق** » : يكون مع اللّه ومع خلقه، فحسن الخلق مع اللّه القيام بعبوديته ظاهرًا وباطنًا مع قوة محبته والطمأنينة إليه بذكره

وقوة الثقة به، ومع الخلق بذل الإحسان لهم ومنع الأذى لهم واحتمال الأذى منهم، وسوء الخلق بعكس ذلك كله.

« **الشرك والكفر** »: الكفر أعم من الشرك، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أي دين يكون، سواء كان صاحبه معاندًا أو جاهلا ضالا، والشرك نوعان: شرك في ربوبيته كشرك الثنوية الذين يثبتون خالقًا مع اللَّه، وشرك في ألوهيته كشرك سائر المشركين الذين يعبدون اللَّه ويعبدون غيره، ويشركون بينه وبين المخلوقين، ويسوونهم باللَّه في شيء من خصائص إلهيته. وقد يكون هذا الشرك أكبر جليا، كأن يصرف العبد نوعًا من أنواع العبادة لغير اللَّه، وقد يكون أصغر. كوسائل الشرك من الرياء والحلف بغير اللَّه ونحو ذلك.

« **النفاق** »: هو أن يظهر الخير ويبطن الشر. وهو نوعان: نفاق أكبر، كأن يظهر الإيمان باللَّه ورسوله وقلبه منطو على الكفر ونفاق أصغر كالكذب وإخلاف المواعيد والفجور في الخصومة.

« **الكبر والتواضع** »: فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس، وضده التواضع للحق يعني قبوله حيث كان ومع من كان ولين الجانب والتواضع للخلق.

فهذه الحدود ينبغي أن تعتبرها في كل ما يمر عليك من نصوص الكتاب والسنة لتهتدي إلى معرفة ما يدخل في الأمور التي حكم اللَّه عليها بالأحكام المتنوعة، وما لا يدخل فيحصل لك الفرقان والرشاد والبيان، فنسأل اللَّه أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، وهو العلم بالحق والعمل به ويجنبنا الطرق المخالفة لذلك.

وقد يسر اللَّه تتميم هذا التعليق المبارك في ثالث شوال من شهور سنة ثمان وستين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة النبوية، فكان على اختصاره وإيجازه ووضوحه فيه معونة عظيمة على فهم كلام رب العالمين، وإن كلام اللَّه كفيل ببيان كل شيء ينتفع به العباد في معاشهم ومعادهم وإرشادهم إلى كل ما فيه مصالحهم المتنوعة ومنافعهم المتعددة، وأنه يتعذر الصلاح والإصلاح للأحوال كلها إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها هذا القرآن في أصول الدين وفروعه، وفي الأخلاق والآداب، وفي الأمور الداخلية والخارجية، والحمد للَّه الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونورًا، والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. بخط الفقير إلى اللَّه من كافة الوجوه عبد الرحمن بن ناصر ابن عبد اللَّه السعدي غفر اللَّه له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، ووقع الفراغ من نقله من خط المؤلف في سابع من الشهر المذكور والسنة المذكورة بقلم الفقير إلى ربه محمد السليمان العبد العزيز البسام، غفر اللَّه له ولوالديه والمسلمين آمين.

* * *

فهرس الموضوعات

فهرس كتاب خلاصة التفسير

الموضوع	الصفحة
ترجمة المؤلف	٥
ذكر أوصاف القرآن العامة	١٥
علوم التوحيد والعقائد والأصول	١٩
بيان ما تشتمل عليه الفاتحة	٢٢
وجوب الإيمان بالرسل	٢٥
آية الكرسي وبيان الشفاعة ولمن هي	٢٧
الطريق إلى العلم أنه لا إله إلا اللَّه	٣١
آيات كونية تدل على وحدانية اللَّه	٣٩
منة اللَّه على الناس ببعثة محمد ﷺ	٤٤
دحض شبهات الكفار على الرسول ﷺ	٤٥
وجوب الإيمان باليوم الآخر ووصف ما فيها	٥٢
وجوب الإيمان بالملائكة والرد على منكريهم	٥٨
الفوائد والثمرات المترتبة على الإيمان باللَّه ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر	٦١

تفسير آيات في حقوق اللّه وحقوق الناس ٦٩
خذ العفو وأمر بالعرف إلخ ٨٣
الأمر بالصلاة وتفسير إقامتها ٨٥
الزكاة وما في إخراجها من الفوائد وأهلها ٩١
فصل في إخراجها من الفوائد وأهلها ٩٥
فصل في الطهارة بالماء والتيمم ٩٧
فصل في صلاة الجمعة ١٠٣
بيان صلاة السفر والخوف ١٠٦
فصل في وجوب الصيام وفوائده ١٠٨
قربه تعالى واستجابته لدعاء الداعي ١١١
وجوب الحج وتوابعه ١١٥
فصل في الجهاد وتوابعه ١٢٧
فصل في البيوع وأنواع المعاملات ١٣٦
فساد الربا والميسر والغرر ١٣٧
آية كتابة الديون وما فيها من الفوائد ١٤٠
أحكام المواريث ١٤٦
فصول في النكاح وتوابعه ١٥١
طبقات النساء وتأديب المعوجة ١٥٨

إرسال الحكمين من الأهل عند النزاع ١٦١
أحكام الطلاق ١٦٧
اختلاف عدة المرأة باختلاف الأحوال ١٧٠
فصل في الإيلاء والظهار واللعان ١٧٤
فصل في آيات الحدود ١٧٦
فصل في الأيمان ونحوها ١٨١
فصل في الأطعمة والصيد ١٨٤
فصل في الأحكام الشرعية والبينة ١٨٧
قصص الأنبياء وما فيها من العبر ١٩٦
تفصيل قصة آدم ١٩٨
قصة نوح وما يستفاد منها ٢٠٨
قصة هود وما فيها من الفوائد ٢١٧
قصة صالح وما يؤخذ منها ٢٢١
قصة إبراهيم الخليل ٢٢٥
قصة لوط عليه السلام ٢٤٢
قصة شعيب وما فيها ٢٤٦
قصة موسى ٢٥١
الرد على منكري الكرامات ٢٦٠

أسباب حصول المغفرة ٢٦٣
قصة يونس ٢٦٥
قصة داود وسليمان ٢٦٧
قصة أيوب ٢٨١
قصة الخضر مع موسى ٢٨٢
قصة ذي القرنين ٢٨٩
قصة عيسى وأمه وزكريا ٢٩٣
قصة يوسف ويعقوب ٣٠٠
قصة أصحاب الكهف ٣١٦
سيرة خاتم النبيين ومعاملته للمكذبين ٣١٩
غزوات الرسول وتواريخها وتفصيلاتها ٣٢٨
كمال القرآن وأسلوبه وتأثيره ٣٣٣
تفسير كلمات جاءت في القرآن لعدة معان: الأمة، السلطان،
واللسان، استوى، التأويل، المعية ٣٣٦
الأسباب الموصلة إلى المطالب العالية ٣٧٣
الدعوة إلى الله وأقسام الناس عندها ٣٧٩
تحديد ألفاظ كثر مرورها بالقرآن ٣٨٤

* * *